

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الغزوة العزري

حقيقة الظاهرة، وخصائص الفن

تأليف
الدكتور صلاح حميد

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>



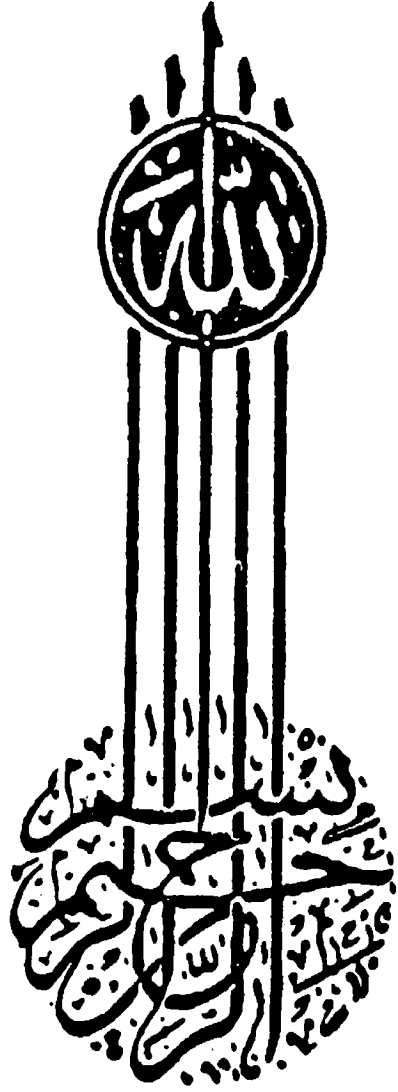
الغزل العذرى

حقيقة الظاهرة ، وخصائص الفن

تأليف
د . صلاح عيد

الناشر مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا ت : ٣٩٠٠٨٦٨



الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

● مقدمة :

يتبادر للذهن لأول وهلة أن موضوع الحب العذرى قد قُتِلَ بحثاً ولم تعد فيه على وجه الإطلاق زيادة لمستزيد ؛ فالكتابات فيه كثيرة فى القديم والحديث ، إلا أن الرجوع إلى ما بين أيدينا من روايات وأخبار وأشعار الحب العذرى تجعلك تشعر أن الموضوع محتاج إلى إعادة النظر بتروٍ وتأنٍ وإمعان من أجل كشف حقيقته . لقد أحيط هذا الموضوع بإطار كبير فخم من المعانى السامية النبيلة الراقية التى ارتفعت به لا إلى مصاف الدين بل إلى التصوف أيضاً ، واعتبر أثراً من آثار التدين الصادق ؛ فهذا قيس به الملوحة شهيد الحب العذرى وإمام المحبين العذريين جميعاً يتجلى رمزاً للعفة والسمو والعذاب الذى لا نهاية له فى سبيل الحب الطاهر المحلق فى آفاق الشفافية ، وقد نحل جسده وعزف عن الطعام والشراب وانطلق فى الصحراء شاردأ هائماً عارياً أو شبه عار لا يفتق من إغماء إلا إلى إغماء . وها هو جميل بن معمر يعلن إعلاناً لا مواربة فيه أن جهاده كله فى الحب ، وأن الشهادة التى يرجوها هى الشهادة فى الهوى ، وقد عاش عمره كله عاشقاً لبثينة التى لم يَعْهُ زواجها من غيره عن استمرار حبه لها وشغفه بها وغزله فيها ، وقد أقسم على عفة حبه وطهارة هواه . . . وها هو قيس بن ذريح عاشق لبنى ، وتوبة صاحب ليلى الأخيلىة ، ووضّاح اليمن صاحب روضة الكندية ، وكثير عزة ، والصمة القشيري عاشق العامرية بنت غطيف ، وكلهم من المتيمن الغزليين الذين تفانوا فى الحب واشتهروا بالتعلق بامرأة واحدة لم يرضوا عنها بدلاً ، ولم يبنوا عنها حولاً . . .

ومع هذا فنحن نتأمل الروايات الخاصة بهؤلاء المحبين الذين ظهروا فى فترة زمنية محدودة لا تتجاوز نصف القرن ، فنرى مجموعة من الشباب الذى لا عمل له مطلقاً غير الحب ؛ فهذا قيس ليلى فى إحدى الروايات يبدو فتى ثرياً

منعماً يحب مجالسة الفتيات ، وحين يلتقى بليلى فى مجتمع نسائى يظل نهاره كله معهن حتى إذا جنه الليل لم يكن له شاغل إلا التفكير فى محبوبته ، وتزعم رواية أخرى أنه نشأ مع ليلى طفلاً حتى إذا كبر حُجبت عنه وامتنع والدها عن تزويجه إياها ، فهام على وجهه لا يعى شيئاً مما يسمع إلا أن تُذكر له ليلى ، ولا ترى فى شعر قيس إلا ذكراً للمفاتن الحسية للمحجوبة وإلا حسداً لزوجها لتمتعه بهذه المفاتن الحسية ! ومن العجيب أننا لا نرى فى أشعار غيره من عشاق هذه الفترة إلا هياماً بالناحية الحسية فقط لا يتعدونها إلى أية مزايا معنوية للمحجوبة . . فنحن إزاء شباب عاطل ينعم بثروة لم ينعم بها سلفه من الشعراء ، وهو منصرف إلى الحب والغزل حتى إذا لم ينل أمله فى الزواج ممن أحب جعل همه فى الحياة ملاحقة المحبوبة المتزوجة ، ومن الطريف أن يتدخل الخليفة نفسه مهدراً دم هؤلاء العشاق المتيمنين واحداً واحداً بسبب مضايقاتهم لأهل محبوباتهم وإصرارهم على ملاحقة محبوباتهم قبل زواجهن وبعده .

وواضح تماماً أننا أمام واقع اجتماعى اقتصادى يسرّ لهؤلاء الفتيان الفراغ من العمل والانصراف للهوى بكل طاقاتهم وأوقاتهم ، وأمام واقع سياسى من جانب بنى أمية لشغل هذه البيئة البدوية بقصص الحب المشتعل دائماً وما ينجم عنه من أشعار تغذى الغناء وتزيد عواطف الناس التهاباً ، تماماً كما شغل الأمويون أهل البصرة فى نفس الوقت بفن الهجاء ونقائضه التى استقطبت اهتمام البصريين فى سوق المربد . وكما نجح الأمويون فى شغل المجتمع المكي والمدنى بالترف والجوارى والشعر والغناء .

هذه هى حقيقة الحب العذرى ، أو تلك الفورة العاطفية التى بدأت فجأة وانتهت فجأة فى هذا المدى الزمنى القصير نسبياً من النصف الثانى من القرن الاول الهجرى وهى حقيقة مبنية على الوثائق التى بين أيدينا من الأخبار والأشعار وهما شقان متكاملان يكشفان لنا طبيعة وحقيقة ظاهرة الحب العذرى الذى زال عنه فى نظرى هذا الإطار الفخم الجميل بسبب التركيز على اللذة

الحسية وحدها فى نظرة العاشق المحروم من أحب ، وربما كان هذا التركيز شيئاً طبيعياً ، لكن الشئ غير الطبيعى هو إحاطة هذا الحب بكل هذه الهالة من السمو والتحليق فى آفاق علوية من الشفافية ، هذا من ناحية الأشعار أما الأخبار فسوف نرى من دراستنا لأحداث حياة جميل بن معمر أن علاقته ببئنة كان معاصروه ينظرون إليها بشئ من الارتياب ، وهو ارتياب يزيد ما أورده صاحب الأغانى من روايات تزيل كثيراً من هذا الإطار الجميل السامى لما تذهب إليه - إن صدقت - من حدوث لقاءات بين الحببين لا ترعى حرمة الحياة الزوجية لبئنة ولا قدامتها !

هناك إذن ظروف اجتماعية واقتصادية جدت على البيئة البدوية استغلتها الظروف السياسية لبنى أمية واستهدفت شغل الناس بهذا الشباب الذى لا عمل له ولا فكر إلا الحب وإلا ملاحقة المحبوبات ، حتى بعد زواجهن ، فلم يكن هذا الشباب مضطراً إلى كسب عيشه بعمل يده ، ولا هو أعداً لشغل فكره بعلم نافع ؛ فكان انصرافه إلى هذه الملاحقات غير الكريمة التى غذاها الفراغ والشباب والجدة ، واستندت السياسة فى إشعار جذوتها إلى تقليد بدوى مزعوم لا أصل له فى جاهلية أو إسلام هو منع الشاعر الذى يتغزل فى محبوبته من الزواج منها !

* * *

حقيقة الظاهرة

● كثرة الكتابات فى الظاهرة :

إن الكتابات القديمة والحديثة فى موضوع الحب العذرى كثيرة لدرجة كبيرة ، فابن النديم فى الفهرست يذكر أن هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٦ هـ) صنف فيه كتابه « الأسماء والأخبار » ، ولأبى الحسن المدائنى (ت ٢١٥ هـ) كتاب « المتيمين » ، وللمغنى المؤلف الفنان إسحاق بن إبراهيم الموصلى (ت ٢٣٥ هـ) كتابان هما « أخبار جميل » ، و« أخبار كثير » ، وللزبير بن بكار الزبيرى : أخبار توبة ولىلى وأخبار المجنون وأخبار كثير .

ثم ظهر بعد ذلك كتاب « الزهرة » لأبى بكر الأصفهاني ، و« مصارع العشاق » للسراج ، وديوان الصبابة لابن أبى حجلة ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكي ، ثم ألف أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٧٨ هـ) كتابه « الرياض » الذى ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين^(١) ، ونستطيع أن نطالع الكثير من أخبار وأشعار هؤلاء الشعراء المتيمين فى الأغاني للأصفهاني ، ويكفى أن يفرد الأصفهاني لمجنون بنى عامر وحده أكثر من سبعين صفحة فى الجزء الثانى من كتاب « الأغاني »^(٢) ، كما نطالع أخبار هؤلاء العشاق فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وفى « الأمالى » للقالى ، و« الموشح » للمرزبانى .

أما عند المحدثين ، فمعلوم ما كتبه الدكتور طه حسين عن هؤلاء الشعراء الغزلين فى حديث الأربعاء ، وهى مقالات بدأ كتابتها فى جريدة السياسة فى عام ١٩٢٤ ، وللدكتور زكى مبارك فيهم كتاب « مدامع العشاق » عام ١٩٢٥ ، وللدكتور حسين نصار كتابان هما : « ديوان جميل بثينة » ، وكتاب « قيس

(١) انظر الفهرست لابن النديم ، الطبعة المصرية سنة ١٣٤٨ ص ١٩١ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني : تونس ، الدار التونسية للنشر ، د/ت ج ٢ .

ولبنى « أصدرهما في عام ١٩٦٠ ، ونشر الشيخ عبد المتعال الصعيدي ديوان
مجنون ليلي ، ثم نشر « بسط سامع المسامر بأخبار مجنون بنى عامر » لابن
طولون الدمشقي في عام ١٩٦٤ .

وهناك أيضاً ما ورد عن هذه الظاهرة في كتابين لتاريخ الأدب العربي عند
بروكلمان (١) ، وعند الدكتور شوقي ضيف في العصر الإسلامي (٢) .

وهذا الفيض من الكتابات الحديثة في موضوع شعراء الحب المأساوي جدير
بالتأمل والبحث ، وبأن تفرّد له دراسة خاصة به تتناول أوجه الاتفاق والخلاف
بين آراء من كتبوا عنه في العصر الحديث بدءاً بـ : الدكتور طه حسين الذي
أثار موضوع شعراء هذا الحب إثارة قوية بإنكاره وجود أشهرهم وهو قيس بن
الملوح وبشكه العنيف الحاد في وجود وضاح اليمن بسبب تناقض الروايات
عنها (٣) ، إلا أننا نريد هنا أن نركز الضوء على الظاهرة نفسها مستضيئين
بطبيعة الحال بأبرز الآراء المختلفة حولها راجين أن تكون دراستنا هذه حلقة
تضاف إلى سلسلة البحث عن حقيقة هذه الظاهرة الهامة في الشعر العربي من
الرجهتين المتكاملتين التاريخية والفنية .



● غرابة الظاهرة :

من غير شك فإن حالة المحب الذي لا يظفر بالزواج من محبوبته هي حالة
متكررة في الحياة البشرية ، إنها حالة معروفة بآلامها النفسية الشديدة وخاصة
حين تتزوج هذه المحبوبة من رجل آخر فتزداد الآلام النفسية شدة وعنفاً ،

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف بمصر جـ ١ .

(٢) د . شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي القاهرة ، دار
المعارف سنة ١٩٦٨ م ، ص ٣٥٩ .

(٣) د . طه حسين : حديث الأربعاء : مجلد ٢ ص ٢٢٣ ، بيروت ، دار الكتاب
الليبي ، د/ت .

ولأنها حالة الكثير من الناس ؛ فإن الإقبال على الأدب الذى يتناولها يكون شديداً فى كل زمان ، وهذا الأدب قد يكون شعراً خالصاً أو نثراً خالصاً أو مزيجاً من هذين العنصرين الأساسيين المكونين للأدب ، سواء عبّر صاحب الحب عن مأساته إذا كان شاعراً أو قصاصاً ، أو عبر غيره عن مأساته .

وفى الأدب الإيطالى نرى قصة حب مأساوى واحدة ينبع منها أعظم أثر أدبى فى عصر النهضة الأوروبية هو « الكوميديا الإلهية » للشاعر العظيم « دانتي » الذى لم يتزوج من حبيبته باتريشيا التى تزوجت تاجراً ثرياً بينما هام الشاعر العاشق شريداً على وجهه (١) . وحين رحلت باتريشيا إلى العالم الآخر كتب دانتي الكوميديا الإلهية متخذاً من باتريشيا مرشداً فى رحلته الخيالية فى العالم الآخر تلك التى التقى فيها بالمشاهير من الراحلين .

وفى الأدب الانجليزى نرى أيضاً قصة واحدة لهذا الحب المأساوى هى قصة « روميو وجوليت » لشاعر الإنجليز الأكبر شكسبير (١) منعت العداوة بين أبويهما زواجهما ، وأدت إلى النهاية المأساوية لجهما وموتهما فى ريعان الشباب (٢) .

نعم .. فى هذين الأديين العالمين نلتقى فى كل منهما بقصة مأساوية واحدة للحب .

أما فى الشعر العربى فنحن نلتقى بسبعة شعراء من أصحاب الحب المأساوى فى مدى زمنى يبلغ نصف قرن تقريباً ! إذ توفى أولهم وهو قيس لبنى سنة ٦٨ هـ (٣) ، وتوفى فى نفس العام أو بعده بعامين (٤) قيس ليلى ، بينما توفى

(١) دانتي أليجييرى : الكوميديا الإلهية - الجحيم ، ترجمة حسين عثمان ص ٢٢ ، دار المعارف بمصر .

(٢) The complete Works of William Shakespear ABBY Liobrary طبعة

رومانيا

(٣) الأغانى : ١٠٤ / ٨

(٤) الأغانى : ٨ / ٨

آخرهم وهو كثير عزة في ١٠٥ هـ ، وبهذا يبلغ المدى الزمني بين وفاة أولهم وآخرهم سبعا وثلاثين عاماً ، ومعنى ذلك أن الامتداد الزمني للظاهرة كلها يمكن أن يتجاوز بقليل نصف قرن من الزمان ؛ أي بمعدل شاعر في كل عقد ونصف من الزمان إذا سمحنا لأنفسنا بهذا التعبير العددي الجاف !

وإذا كان المدى الزمني محدوداً بهذا الشكل ، فإن الظاهرة لا تتجاوز حدود نجد وبوادي الحجاز ، أي أنها ظاهرة بدوية خالصة . إن هذا هو مداها الزمني والمكاني المحدود ، والرواة قد يمتدون بها إلى الجاهلية حيث مأساة عروة وعفراء ، يفعلون ذلك على سبيل التذكر والتماس الأصل لهذه الظاهرة ، ولكنهم أبداً لا يمتدون بها إلى العصر التالي لعصر بني أمية ، وهو عصر بني العباس حيث العباس بن الأحنف وحبه الشريف العفيف لفوز^(١) ، ولا إلى حب مأساوي آخر هو حب أبي نواس لجنان ، هذا الحب الذي عذب الشاعر وأضناه وانتهى به إلى هذا الإغراق في الخمر ، والذي تمثل في مجموعة من الأشعار التي صورَ فيها بصدق عذاب الحرمان في الحب تصويراً لا أرى شاعراً آخر وُفق إلى مثل صدقه وعمقه^(٢) ، وإذا كانت سمعة أبي نواس قد حالت دون الامتداد بمآسى شعراء الحب المأساوي إليه ، فما هي سمعة العباس ابن الأحنف التي لا تشوبها شائبة لم تشفع له في أن يكون امتداداً لشعر الحب المأساوي في العصر الأموي بالزمان والمكان المحدودين اللذين كانا إطاراً لهم ولظاهرتهم الغريبة حقاً التي برزت فجأة إلى الوجود وانتهت فجأة في هذا المدى الزمني القصير نسبياً .



(١) الأغانى : ٢٤ / ٩

(٢) ديوان أبي نواس . بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ ، تحقيق محمد عبد المجيد الغزالي ص ص ٢٤٤ - ٢٥٤ ، ٢٨٨ - ٢٩١

● قصص الشعراء المحبين :

● القيسان :

ولا بد لنا أن نلّم الآن في مجال رصدنا للظاهرة بقصص هؤلاء الشعراء ،
ها هو قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة اللثي من كنانة من عرب المدينة من
مُضر ومحبوبته لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء ،
أى يخالط سواد عينيها زرقه ، حلوة المنظر والكلام^(١) ، وقد عارض أبوه
في زواجه منها لأنه كان يريد أن يزوجه من إحدى بنات عمه حتى لا يخرج
ابنه إلى غريبة ، وحتى تبقى ثروته في عشيرته ، وبعد أن تدخل الحسين بن
على رضى الله عنه ، أذعن والد قيس راضياً ، إلا أن والده ووالدته أيضاً الحآ
عليه في تطليقها بعد أن تبين بعد عدة سنوات من الزواج أنها عاقر ، واشتد
أبوه في مطالبته بإنهاء هذا الزواج ، وحلف « ألا يكته سقف بيت أبداً حتى
يطلق لبنى » ، وأخيراً أذعن قيس لهذا الإلحاح الأبوي وطلّق زوجته وحبيبته ،
إلا أنه أصيب على الفور بأزمة نفسية شديدة يصفها صاحب الأغاني بقوله :
« ولم يلبث حتى استطير عقله وذهب به ولحقه مثل الجنون »^(٢) ، وأن حالته
اشتدت حتى كادت تذهب بحياته^(٣) ، وخاصة بعد أن تزوجت لبنى من
غيره ، فقد استمر يشيب بها في شعره الذي ذاع به أمره ، واشتهر في المدينة ،
وغناه المغنون ، وعطف عليه الناس . ويصل الأمر إلى حد إهدار السلطان
لدمه بعد زجره وتحذيره دون جدوى .

وتزعم إحدى الروايات أن الحسين بن على رضى الله عنه أخا قيس في
الرضاع تدخل مرة أخرى هو والحسن بن على وعبد الله بن جعفر واستطاعوا
إقناع زوج لبنى بتطليقها ، وأن قيساً تزوجها مرة أخرى ، وإزاءها رواية أخرى
تذكر أن لبنى توفيت قبل وفاة قيس ، وأن أشعاره فيها كانت تبلغها فيشتد بها
الحزن عليه .

(١) الأصفهاني : الأغاني : ١٨١/٩

(٢) الأغاني : ١٨٤/٩

(٣) المرجع السابق : ١٨٨/٩

وهناك قصة قيس بن الملوح الشهير بمجنون بني عامر ، الذي نال أكبر حظ من عناية القدماء والمحدثين في الأدب العربي وفي غيره من الآداب الشرقية ، وقد شكَّ أبو الفرج الأصفهاني في وجوده أصلاً وبراً نفسه من العهدة في أخباره (١) ، كما شك في وجوده شكاً صارخاً الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء لتناقض الرواة في اسمه وأخباره .

ومحبوبة قيس هي ليلي بنت مهدي بن سعد العامرية التي يذكر أنه نشأ بينهما الحب ، وهما صبيان يرعيان مواشى أهلها ، فلما كبرا حُجبت عنه ، ولأن قيساً شبيب بها في شعره فقد حُظِرَ عليه الزواج منها وفقاً للتقاليد المرعية آنذاك ، فزاده ذلك عناءاً وحباً وتشيباً بها ، وكان أن زوجها أهلها من رجل آخر ، فذهب عقل قيس وهام على وجهه شريداً في الفلوات وشكاه أبوها إلى السلطان فأهدر دمه ، وانتقلت ليلي وأهلها إلى مكان آخر فلم يزد ذلك قيساً إلا ذهولاً وولهاً ونظماً للشعر الذي تداوله الناس وغناه المغنون .

وهناك رواية أخرى تزعم أن قيساً وليلي التقيا في سن الشباب ، وأن ذلك كان في جمع من النسوة عند امرأة من بني عقيل ، فدعته السيدة العقيلية إلى النزول عندها ، فأعجبت النسوة وفيهن ليلي بما أنشدهن من شعر . وتذكر الرواية أن قيساً فُتِنَ بليلي في هذا اليوم ، وأنه مرَّ بهذا الجمع من النسوة فتى يقال له منازل ، فأقبلت عليه النسوة وتركن قيساً مما جعله ينصرف عنهن مغضباً ، إلا أنه لم يستطع أن ينسى ليلي بعد ذلك ، ويقال : إن هذا الحب قد ملك عليه قلبه ونفسه ، وصار لا يفهم شيئاً مما يحدث به ، إلا أن تُذكر له ليلي فيرجع إليه عقله (٢) ، وأشار بعض الناس على أبيه في تزويجه لعله

(١) الأغاني : ١١/٢ ، طبع دار الكتب المصرية .

(٢) ابن طولون الدمشقي : بسط سامع المسامر بأخبار مجنون بني عامر ، مكتبة

القاهرة ، د . ت ، ص ٢٠ - ٢١

ينسى ليلى ويكف عن ذكرها إلا أن قيساً أبى هذا الزواج (١) ، وأن الناس أشاروا على أبيه باصطحابه إلى الكعبة والتعلق بأستارها والابتهاال إلى الله أن يشفيه من حب ليلى ، فلما فعل أبوه تعلق قيس بأستار الكعبة ودعا الله أن يزيد حبا لها فضربه أبوه ، وأن قيساً سمع إذ ذاك منادياً ينادى فتاة اسمها ليلى فخر مغشياً عليه ، ووقف أبوه يبكي (٢) ، وأنه هام فى الفياقى ممزق الثياب عارياً أو شبه عارٍ ، لا يعى شيئاً حتى يذكر له اسم ليلى فيثوب إلى رشده .

ويشكو أهل ليلى إلى السلطان أمره فيهدر دمه كما حدث مع قيس لبنى ، إلا أن الذى يتوسط لتزويجه من ليلى لا يصيب النجاح الذى أصابه الحسين بن على رضى الله عنه ؛ إذ يذكر ابن طولون الدمشقى أن مروان بن الحكم استعمل رجلاً من قریش على صدقات كعب بن ربيعة بن عامر ، وأن قلب هذا القرشى أمير الصدقات رقاً لقيس ولحاله ، وأنه استنشده فأعجب به ودعاه إلى ملازمته ليحتال له فى أمر ليلى حتى يجمع بينه وبينها ، وأن قيساً استأذنه فى الخروج معه إلى مجتمع سنوى لبنى عامر ، فأخبر قومٌ من رهط ليلى عامل مروان بن الحكم أنه معروض نفسه للإثم إذا سمح لقيس بالخروج معه لإهدار السلطان دم قيس لهم إذا أتاهم (٣) ، فعدل القرشى عن ذلك وأمر لقيس بقلائص من إبل الصدقة فأبى قيس قبولها قائلاً :

رددتُ قلائصَ القرشىِّ لِمَا بدا لى النقضُ منه فى العهدِ
وراحوا مقصرين وخلفونى إلى حزنٍ أعالجُه شديدِ

ويذكر أن نوفل بن مساحق الذى خلف أمير الصدقات السابق خرج مع قيس فعلاً إلى حى ليلى فى مسعى منه لتزويجه من ليلى إلا أن أهلها ركبوا

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن طولون الدمشقى : بسط سامع المسامر ص ٣١

خيولهم يريدون الحرب لأن « العرب لا يزوجون امرأة عن اشتها بعشقتها » (١)
فأثر نوفل السلامة وعاد عن مسعاه .

ومن يطالع أخبار قيس ير أن حالته في الحب أسوأ بكثير من حال بقية
الشعراء العشاق ، ومعاناته أضعاف معاناتهم ، وربما كان شعره لهذا أصدق
وأعمق وأرق من أشعارهم ، ويقال إن ليلى نفسها كانت تبكى لحاله ، وأنها
حين عرفت أن رجلاً قد نزل بينى عامر وأنه قد رأى قيساً يهيم مع الوحوش
في الفيافي لا يرتد إليه عقله إلا إذا يُذكر له اسم ليلى أنشدت ما يلي :

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجعُ
بنفسى من لا يستقل برحله ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع
وأنها بكت حتى غشى عليها (٢) .

ويذكر أن قيساً كان يتنشق أخبار ليلى ، وأنه خرج مع قوم في سفر فمروا
في طريق يتشعب وجهين أحدهما ينزله رهط ليلى ، فسألهم أن يعدلوا معه
إلى تلك الجهة فأبوا ، فمضى وحده وهو يقول :

أترك ليلى ليس بينى وبينها سوى ليلةٍ إنى إذن لصبورُ (٣)

وأنه كان يمر على ديارهم ويقول قوله الشهير :

أمرٌ على الديار ديار ليلسى أقبلُ ذا الجدار وذا الجدار
وما حبُّ الديار أهاج وجدى ولكن حب من سكن الديارا

ويذكر أنه خرج مرة إلى حى ليلى فنزل بامرأة يقال لها سعاد ، فاخفى
عندها فأحس بذلك أهلها وحدثوا المرأة في ذلك فجاءت إليه وحدثته وأخبرته

(١) ابن طولون : بسط سامع المسامر ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٤٢

(٣) المرجع السابق ص ٤٤

أنها غريبة وأنها تخاف على نفسها أن يُخرجوها من الحى أو أن يقتلوه عندها ،
وأن قيساً ذهب مرة فرأها ، ولم يقدر على كلامها فقال :

إذا نظرت نحوى تكلم طرفُها وجاوبها طرفى ونحن سكوت
فواحدة منها تبشر باللقا وأخرى لها طرفى يكاد يموتُ
إذا متُّ خوف اليأس أحيانى الرجا فكم مرةٍ قد مُتُّ ثم حييتُ

وانتهت حياة قيس كما تذكر الروايات فى الفيافى شريداً ذاهب العقل
عرياناً قد شعث شعر رأسه على حاجبيه ، وقد عثر عليه ميتاً فى وادٍ كثير
الحجارة (١) ، ويقال إن ليلى قد توفيت قبله ، وذكر كثير عزة أنه بينما كان
عند قيس ليلى إذ مر راكب فأبلغه وفاة ليلى وأنهما ذهبا إلى قبرها فأقبل يقبله
ويلزمه ويشم ترابه وينشد الشعر ثم شهق ، فمات فدفنه كثير (٢) .

وقد امتد أثر قصة قيس ليلى إلى الفارسية والتركية ، فنظم قصة مجنون
ليلى نظامى الكنجوى سنة ٥٨٤ هـ فى نحو أربعة آلاف بيت من الشعر
المثنوى (٣) ، ونظمها فى مثنوى طويل الأمير خسروالدهلوى (ت ٧٢٥ هـ)
على نسق ما فعله نظامى ، وكذلك فعل عبد الرحمن الجامعى شاعر
التيموريين الكبير (ت ٨٩٨ هـ) فى ٣٧٦٠ بيتاً من الشعر المثنوى ، وترجم
هذه القصة الشعرية إلى العربية الدكتور محمد غنيمى هلال بعنوان ليلى
والمجنون ، أو الحب الصادق ونشرتها مكتبة الأنجلو بمصر سنة ١٩٥٤ ،
وكذلك فعل شعراء فرس آخرون ، أما فى الأدب التركى فقد كتبها شعراً
مثنوياً تركياً جميلاً الشاعر الكبير فضولى البغدادى (ت ١٥٠٤ هـ - ١٥٥٦ م) .

(١) ابن طولون : بسط سامع المسامر ص ٤٩

(٢) المرجع السابق ص ٥٠

(٣) براون ادوارد جرانفيل : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة إبراهيم الشواربى ،
مطبعة السعادة سنة ١٩٥٤ ص ١٠٦ ، وانظر أيضاً : تاريخ الأدب الفارسى للدكتور رضا
زادة شفق ، ترجمة محمد موسى هندادى ، دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ص ١٠٤

● جميل بثينة :

وفقاً لرواية الاغانى (١) ، فإن وفاة جميل بن معمر عام ٨٢ هـ تجعله من حيث التابع الزمني ثالث أكبر شعراء الحب المأساوي الذين نُلِمُّ بقصصهم في هذه الفترة من موجة هذا الحب من تاريخ الشعر العربي . ونلاحظ أن حب جميل لبثينة ومن بعده حب كثير لعزة أكثر هدوءاً من قصتي الحب السابقتين ؛ فليست فيها كل هذه الحرقه والعذاب والأنين وذهاب العقل وتمزيق الثياب والهيام في الفيافي ، ولولا تدخل الحسين رضى الله عنه في حب قيس لبنى لكان مثل سميّه ومعاصره قيس ليلى .

ويذكر أن جميلاً عشق بثينة ، وهو غلام صغير ، فلما كبر خطبها فردَّ عنها ، فقال الشعر فيها (١) ، وهذا يعنى أن جميلاً بتعلقه ببثينة من الصغر قد دخل تحت طائلة التقليد الذى يحتم حرمانه من الزواج ممن أحب ، وتزوجت بثينة من نبيه بن يزيد بن الحليس الحنى العذرى (٢) ، ولم يحل هذا دون إصرار جميل على التعلق بالمحبوبة ، بل زاده عناداً وتصميماً على لقائها وهو يقول فى ذلك :

ولو أن ألفاً دون بثنة كلهم غيارى وكلُّ حاربٍ مزعجٌ قتلى
لحاولتها إما نهاراً مجاهراً وإما سرى ليلى ، ولو قطعت رجلى
وكالعادة شكاه أهلها إلى السلطان فطلبه (٣) ، وظل جميل عاكفاً على حب بثينة حتى كبر وشاب وصبغ شعره بالحناء ، وذكر جميل ذلك فى قوله :

تقول بثينة لما رأت فنوناً من الشعر الأحمرِ

(١) الاغانى : ٩٥/٨ ، الطبعة التونسية ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، بيروت ، طبع دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٥ - الطبعة الثانية - ص ٢٨٢
(٢) الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٣ ص ٤٤٩

(٣) ديوان جميل ص ٣٥

كبرتَ جميلَ وأودى الشباب فقلت بثينَ ألا أقصرى
أتسينَ أيامنا باللوى وأيامنا بذوى الأجرِ
وإذ أنا أغيدُ عصنَ الشباب أجرُ الرداءِ مع المئزرِ

إلى أن يقول :

قريبان مربعنا واحداً فكيف كبرتُ ولم تكبرى !؟

وحين رحل رهط بثينة في شيب جميل إلى أطراف الشام الجنوبية نراه يفد على عبد العزيز بن مروان بمصر فيكرمه ويأمر له بمنزل ، وبتوفى جميل في مصر بعد قليل (١) ، وحين نُعى جميل من مصر إلى بثينة بكت ومعها جمع من النساء ثم قالت :

وإن سلوى عن جميل لساعةً من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمرٍ إذا مت بأساء الحياة ولينها (٢)

فحب جميل لبثينة كما ذكرنا حب هادى رزين امتد على طول عمره ، وشعره فيها على نفس النمط من الهدوء والرزانة ، وإن أورد صاحب الأغاني روايات تدل على أنه كان يلتقى بها سراً ، وقد حرص جميل على التأكيد على أن حبه لها كان حباً طاهراً عفيفاً كما سنرى فيما بعد .

● توبة ووضاح اليمن والصمة :

وقبل أن نلم بقصة كثير عزة آخر شعراء الحب المأساوى فى هذا العصر نذكر ثلاثة منهم هم توبة الحميرى صاحب ليلى الأخيلية ، وعبد الرحمن

(١) الزركلى، خير الدين : ١٣٨/٢ ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين سنة ١٩٩٠ - الطبعة التاسعة .

(٢) الأغاني : ١١٦/٨

الحميري المعروف بوضاح صاحب روضة الكندية ، والصمة بن عبد الله
القشيري صاحب العامرية بنت غطيف القشيرية .

أما توبة فيذكر أنه كان لصاً ، وكان مفتوناً بليلى الأخيلية ، وأن أباهما
زوجها من غيره نكايته فيه (١) ، فأكثر من قول الشعر فيها ، ربما « نكايته » منه
في أبيها ! ومن أشهر أبياته في ليلي الأخيلية قوله :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت عليّ ودونى جنديّ وصفائحُ
لسلمتُ تسليمَ البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القلب صائحُ
ولو أن ليلي في السماء لأصعدتُ بطرفي إلى ليلي العيون اللوامحُ (٢)
ومما يذكر هنا أن توبة كان معاصراً لجميل ، وأنهما تصارعاً وتناضلاً ودياً (٣) .

والعاشق الثاني في هذه المجموعة الثلاثية بين جميل وكثير هو عبد الرحمن
ابن إسماعيل الخولاني الحميري المعروف بوضاح اليمن لجمال طلعتة إلى حد
التدع في المواسم خشية الحسد (٤) ، ويقع وضاح في حب روضة الكندية
ويمنع من الزواج بها لأنه أحبها واشتهر بحبها ، ومما قال فيها :

يا روضة الوضاح قد عنيت وضّاح اليمن
فاسقى خليك من شرا ب لم يكدره الدرّن
إنسى تهيمنى إليـ ك حمامتان على فنن (٥)

(١) الأعلام : ٧٣/٢

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٦٧

(٣) الشعر والشعراء ص ٢٧٠

(٤) الأعلام : ٦٩/٤ ، الأغاني : ٢٠٩/٦

(٥) الأغاني : ٢١٢/٦

وتصاب روضة بالجذام ، وتلقى مع المجذومين ، ولا يسمع لها خبر بعد ذلك (١) ، إلا أنه يكتب لوضاح أن يموت ميتة شنيعة في حب آخر هو حبه لأميرة أموية نشأ معها في المدينة ، فأحبها وأحبته ، ثم حجبت عنه بعد أن بلغت مبلغ النساء واشتد عليه البلاء بعد أن حملت من المدينة إلى دمشق لتزوج ابن عمها الوليد بن عبد الملك نفسه ، لكن الحبيبين استمرا يلتقيان ، وكانت المحبوبة قد أعدت صندوقاً تخفى فيه الحبيب إذا وقع محذور ، وعلم زوجها الوليد بذلك فاستهداها الصندوق ، وألقى به في بئر عميقة قطعاً لدابر الإشاعات (٢) وكان ذلك نحو سنة ٩٠ هـ (٣) ، ولم يسمع بعد ذلك شيء عن وضاح اليمن !

أما المحب الثالث في هذه المجموعة فهو الصمة بن عبد الله القشيري ، وكان يهوى إحدى بنات عمه العامرية القشيرية ، ولم يساعده أبوه على تدبير مهرها الباهظ (٤) ، وزوجها أبوها من آخر فاشتد حزن الصمة ووجده ، ومع أنه تزوج إلا أنه زهد في الحياة ، وانضم إلى جيوش الفتوح لكنه لم ينسها ، وظل ينظم في حبه بعض الأشعار .

● كثير عزة :

ونأتى إلى آخر المحبين المحرومين ، وهو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي الذي كان من أبرز شعراء القرن الأول الهجري ، وعند كثير تكون جذوة الحب اللاهب في هذه الموجة العاطفية قد بلغت قاعها أو أدنى درجاتها ، وكان كثيرُ راويةً لجميل بن معمر ، وله أشعار في عزة بنت حميل الضمرية ، ومن أهمها قصيدته التائية التي يقول فيها :

(١) المرجع السابق : ٢١٣/٦

(٢) الأغاني : ٢٢٥/٦ (التونسية) .

(٣) الأعلام : ٦٩/٤ (بيروت) .

(٤) الأغاني : ٦/٢

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزةٍ من أعراضنا ما استحلّتِ
وقد اتهمه ابن سلام بأنه كان يتقول ، ولم يكن عاشقاً ولا صادق
الصباية (١) ، ويؤكد ذلك أن كثيراً يعلن صراحة أنه صحا وبريء من حب
عزة :

عجبتُ لبرئى منكٍ يا عزُّ بعدما عمرت زماناً منكٍ غير صحيح
فإن كان برءُ النفس لى منكٍ راحةً فقد برئتُ إن كان ذاك مريحى (٢)

وأهم من ذلك كله أن شعر كثير لم يكن كله فى محبوبته ، كما هو حال
بقية شعراء هذا اللون من الحب أمثال قيس بن ذريح وقيس بن الملوّح وجميل
وغيرهم ، فقد كان كثير مشغولاً بأن يكون أكبر مدافع عن نظرية الكيسانية ،
وأفكارها الخاصة بالتناسخ وانتقال قبس النبوة فى علىّ وأبنائه وفكرة المهدي
المنتظر . لقد انغمس كثير فى السياسة انغماساً كبيراً ، فهو يعاتب ابن الزبير
لحبسه ابن الحنفية بمكة ، ثم يتصل معه بعد الملك فى دمشق ويصبح من
مداحه ، وجملة القول أن كثيراً لم يكن متفرغاً للحب ولأشعاره كما كان
شأن أصحاب الحب المأساوى ، وإن كنا لا نعدم عنده لمحات قليلة من توهج
العاطفة كما سنرى ، وعنده كما ذكرت تخمد هذه الموجة العاطفية التى ثارت
على مدى نصف قرن من الزمان .

* * *

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٤٨ ، القاهرة ، مطبعة المدنى ، د . ت .

(٢) ديوان كثير ص ٤٥٩

الظاهرة عند القدماء والمحدثين

الآن وقد عرضنا لظاهرة الحب المأساوي وأصحابها في مداها الزمني في العصر الأموي فربما أمكننا أن نسهم في كشف جوانبها الغامضة من خلال مناقشة أخبار القدماء وآراء المحدثين حولها مختبرين في ضوء ذلك فرضنا الأساسى ، وهو أن ظاهرة الحب المأساوي في نجد وبادى الحجاز وأيضاً الحب اللاهى فى حاضرتى الحجاز مكة والمدينة ، وكذلك التهاجى فى ذلك جنوب العراق كلها ظواهر شعرية حركتها السياسة الأموية لتشغل القبائل العربية عن السياسة ، وتخفف عن نفسها بعضاً من ضغط المطالبين بالخلافة الذين كان يعج بهم هذا العصر من زييرين وخوارج وشيعة .

١ - رؤية القدماء :

وهذه الرؤية تتمثل فى الأخبار والأشعار التى نقلها إلينا القدماء ، والتى حرص بعضهم على أن يشير إلى سلسلة رواتها ، كما فعل أبو عبد الله شمس الدين محمد بن على بن طولون فى بسط مسامع المسامر فى أخبار محنون بنى عامر ، والذى ذكر فيه أيضاً أخبار ليلى الأخيلىة وتوبة وقيس بن ذريح ولبنى (١) .

● التقاليد والسياسة :

يمثل الشعر العقدة الرئيسية فى هذه القصص ، فالمحبون المتيمون كلهم شعراء ، ومن أجل هذا فهم يعبرون عن حبهم شعراً ، ولهذا يشتهر هذا الحب ويذيع ، وهذا الاشتهار يتعارض مع تقليد يقضى بمنع من يشتهر بحب فتاة من الزواج بها فى هذه البيئة ، وهذا يزيد حب الشاعر فى العادة التهاباً

(١) بسط سامع المسامر : شرح وتحقيق عبد المتعال الصعبدى - مكتبة القاهرة ، د . ت .

ويزيده إصراراً على هذا الحب ، فيلجأ أهل المحبوبة إلى السلطان الذى يهدر لهم دمه إذا تعرّض لفتاتهم .

الشعرُ إذن هو العقدة الرئيسية ، والمحرك الأول لأحداث هذه القصص المتشابهة فى جوهرها ، وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلى وجدنا الشعراء يذكرون محبوباتهم بالاسم عند امرىء القيس المعروف باستهتاره الذى أحرق عليه والده ، وعند زهير بكياسته وحكمته ورزاقته ، وعند لبيد العامرى ، وعند النابغة ، بل عند عنترة الذى اشتهر بحب ابنة عمه عبلة ، وكان لونه هو العائق الوحيد الذى لم يلبث أن زال ، بل إن قصص الحرمان فى الحب التى يذكر أنها من البدايات الجاهلية لقصص الحرمان فى الحب فى الإسلام هى قصص لا نرى فيها أبداً هذا التقليد المانع من الزواج بسبب الاشتهار بالحب الذى يكون الشعراء أول ضحاياه بطبيعة الحال . فهذه قصة المرقش الأكبر مع ابنة عمه أسماء الذى أخلف عمه وعده له وزوج حبيبته بغيره (١) ، وهذا عمرو بن عجلان النهدي الذى أرغمه أبوه على تطليق زوجته المحبوبة هند التى تزوجت من آخر فقضى بقية حياته يبكيها حتى إذا لقيها وتعانقا سقطا ميتين (٢) ، وهذا عروة العاشق لابنة عمه عفراء يزوجها أبوها من آخر لأن عروة لم يستطع دفع مهرها ، وقد قضى نحبه حزناً بعد أن زارها عند زوجها (٣) .

وفى كل هذه القصص ومع أن أبطالها شعراء إلا أنه لا يرد أبداً ذكر لهذا التقليد المزعوم الشهير . بل إن الشاعر الجاهلى الشهير عنترة الذى عشق ابنة عمه عبلة لم يكن السبب الذى من أجله وجد صعوبة فى زواجه منها هو غزله الذى صرح فيه باسمها فى قصيدته التى علقت مع أجود قصائد الشعر الجاهلى على أستار الكعبة ، نعم لم يكن هذا هو العقبة فى سبيل هذا الزواج وإنما كان لون عنترة الأسود .

(٢) الأعلام : ١٧/٥

(١) الأنطاكى : تزيين الأسواق : ٩٢/١

من أجل هذا فنحن نواجه بحق موقفاً غامضاً يتطلب التفسير بالنظر إلى هذا التقليد الغريب .

كان العربي في جزيرته قبل الإسلام دائم السعى وراء متطلبات الحياة ، أما بعد أن فاض خير الفتوح الإسلامية على العرب في جزيرتهم وفي العراق وفي الشام ، فقد تغير الحال ونشأت عندهم أوقات فراغ ، كان لا بد أن تملأ ، ولأن خلفاء بني أمية كانوا يعانون من ضغط المطالبين بالخلافة ، ومن متاعبهم كالزبيرين والخوارج والشيعة ، فقد عملوا جهدهم على أن يشغلوا كل منطقة بما يلائمها ، وهكذا استطاعوا أن يشغلوا حاضرتي الحجاز : المدينة ومكة بالأموال التي أغدقوها ، وبما تدفق عليهما من جوارى الفرس والروم .

وفي كتاب « الأغاني » للأصفهاني خير تصوير لحياة الطرب واللهو والنعيم في هاتين المدينتين . وكان من الطبيعي أن ينشأ عن ذلك شعر الغزل اللاهني الذي لبي حاجات المغنين والمغنيات وملا فراغ أهل المدينتين المترفتين (١) .

أما في جنوب العراق ، وخاصة في البصرة التي امتلأت بالقصور الضخمة ومظاهر الغنى ، فقد ملا فراغ الناس فيهما تلك المباريات الشعرية في الهجاء ، وبما يدل حقاً على أنها مباريات فنية أن الشاعر كان ينظم قصيدة في هجاء نظيره وعشيرته فينظم هذا قصيدة على نفس الوزن والروي في الرد عليه وكان الناس يتجمعون حولهما يصفقون ويهتفون ويصيحون (٢) .

وقد امتلأت هذه النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل بالكثير مما تعافه النفس الكريمة من تناول الأعراض ، ولكنها كانت ترضى الناس في هذا الزمان ،

(١) انظر الأغاني - الجزء الأول - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وأيضاً الأغاني : ١٥٢/١٠ (دار الكتب) ، وانظر : د . شوقي ضيف : العصر الإسلامي ص ٢٤٢ ، ط ١٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ ، وانظر الطبري : ٢٤٦/٤ ، والكامل للمبرد ،

بيروت ، مكتبة المعارف ، د . ت ص ٧٨٥

وكانت تحقق الحاجة إلى ملء فراغهم بالدرجة التي كان يحققها الغزل اللاهى فى مكة والمدينة وما ارتبط به من غناء .

وربما جعلنا ذلك نفهم بدرجة أكبر من الوضوح حقيقة الغزل المأساوى فى نجد وبوادي الحجاز فى ذلك الوقت ، فالغزل اللاهى فى الحجاز كانت قد بعثته ظروف الحياة اللاهية آنذاك فى مكة والمدينة ، والنقائض فى جنوب العراق بعثتها العصبية القبلية التى كانت البصرة مسرحاً لها ، وقد خرجت البصرة أكثر من مرة عن طاعة الأمويين ثم عادت إليها (١) ، فالذى كان يرضى هذه البيئة المشتعلة بالعصبية ليس الغزل الرقيق ، وإنما التراشق بسهام الكلام . هذه هى « التسلية » الملائمة هنا ، ويذكر د . شوقى ضيف أن المسألة لم تكن مسألة هجاء ، إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبية القبائل والعشائر (٢) ، ويذكر أيضاً أنها لو أخذت شكلاً من أشكال الهجاء الجاد لشهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات (٣) .

فإذا جئنا إلى نجد وجدنا هذا اللون الآخر من التسلية وإزجاء أوقات الفراغ فى قصص الشعراء العشاق المحرومين الذين كانت أشعارهم تغذى أيضاً مركزى الغناء والطرف فى مكة والمدينة (٢) ، وفى اعتقادى أن السياسة الأموية التى هيأت للحياة اللاهية فى الحجاز هى التى هيأت للإحياء « الفني » لعصبية القبائل فى البصرة ، وكان رضاها عن انشغال الناس فى الحجاز باللهو وشعره هو نفس رضاها عن انشغال الناس فى جنوب العراق بالهجاء وشعره ، والدليل على ذلك أنه لما دخلت البصرة فى طاعة ابن الزبير نرى

(١) الطبرى : ٣ / ٥١٠ - ٥١١ ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .

(٢) شوقى ضيف : العصر الإسلامى ص ٢٥١ ، ط ١٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٠ .

القباع والى ابن الزبير عليها فى سنة ٦٦ هـ يأمر بهدم بيتى جرير والفرزدق لإثارتها الضغائن بين القبائل (١) . ويعلن الشاعرين كليهما غضبهما من هذا الوالى لذلك ، ولم يفعل الأمويون شيئاً من هذا ، بل كان هذا التهاجى يرضيهما ، وكان الشاعران الكبيران جرير والفرزدوق يقصدان معاً إلى دمشق ، ومدائح جرير فى الخلفاء الأمويين معروفة .

من أجل هذا كله أرى أن ما حدث فى نجد قد وقفت وراءه السياسة الأموية ، فلا شىء يصنع من فراغ ، بل لا بد أن تكون هناك مادة لصنعه وأساس يبنى عليه كما حدث فى الحجاز والعراق ، ويبدو أن دور السياسة الأموية فى نجد وبوادر الحجاز كان واضحاً فى المسارعة بإهدار دم العاشق الذى يمنع من الزواج ممن يحب ، ويظل ينظم الأشعار معبراً عن حبه ، كما حدث مع القيسين العاشقين المتعاصرين قيس لبنى ، وقيس ليلى وغيرهما .

فالسُلطان فى دمشق كان يهدر دم هذا العاشق استناداً إلى تقليد بدوى لا أصل له فى الجاهلية أو الإسلام على الإطلاق .

واضح تماماً أن السياسة الأموية وجدت هذا الإجراء محققاً لغرضها فى شغل أوقات الفراغ فى هذه البيئة بإطلاق الأشعار المعبرة عن الحرمان وتداول قصص وأخبار هؤلاء الشعراء العشاق ، فساعدت بإهدار دمائهم على زيادة إشعال نار الهوى ، وما يتطاير عنها من شرر الشعر ، ولم يكلفها هذا الإجراء المال الذى أغدقته على الحجاز لتحقيق نفس الهدف ، ومما يوضح أثر السياسة فى أحداث هذا العشق ذى الرنين العالى نجاح الحسين بن على رضى الله عنه أخى قيس فى الرضاع فى مسعاه الأول لتزويج قيس من لبنى ، ثم

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ٢٧٨/٥ ، وأيضاً : شرح النقائض لأبى عبيدة

(طبعة بيفن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣

مساءه الثانى مع غيره من أجل تطليق زوج لبنى لها لإعادة زواجها من قيس الذى كان قد طلقها بضغط من والديه . حدث هذا برغم إهدار السلطان الأموى لدم قيس حين استمر يشبب ببنى بعد طلاقه لها ، لكن ذلك لم يقف عائناً أمام قوة نفوذ الحسين رضى الله عنه .

وعلى الجانب الآخر نرى قيس ليلى المعاصر لقيس لبنى أسوأ حظاً ، فإن أميرى الصدقات اللذين عزموا على بذل الجهود لزواج قيس من ليلى لم ينجح مساعهما إذ لم يكن لهما مكانه ونفوذ الحسين رضى الله عنه عند الناس .

وهكذا نرى بصمات السياسة الأموية على أعلى المستويات واضحة فى أهم وأشهر حدثين من أحداث الحب المأساوى فى هذا الزمان .

● بنو عذرة ، وهذا اللون من الحب :

هناك ملمح فى هذا الحب لا يمكن إغفاله هو نسبة القدماء له إلى بنى عذرة . ويتنمى بنو عذرة إلى قبائل قحطان اليمينية (١) ، ويعرفون بنى عذرة ابن سعد هذيم بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة ، وقد تفرق بنو عذرة فى الأمصار الإسلامية حتى وصلوا إلى الأندلس ، كما يقول ابن حزم (٢) ، ويقال : إن سبب هذا اللون من الحب الذى لا نهاية له إلا بنهاية صاحبه هو عفة رجال بنى عذرة وجمال نسائهم الصارخ ، وقد سُئل أحدهم ما بال قلوبكم كأنها قلوب الطير تنمات ، كما ينمات الملح فى الماء ؟ أما تجلّدون ؟ فقال : إنا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها ، وقيل لأحد العذريين : ممن أتيت ؟ فقال : من قوم إذا أحبوا ماتوا ! فقالت جارية سمعته : عذرى ورب الكعبة (٣) !

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ط ١ ، دار المعارف سنة ١٩٦٢ ص ٤٨٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٩

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ليدن سنة ١٩٠٤ ص ٢٦٠

ولم نسمع بهذا الحب فى الجاهلية ، ولعله كان محصوراً فى هذه القبيلة اليمنية حتى إذا ظهر الإسلام وتغيرت مواطن القبائل ، ونزل العذريون بوادى القرى فى شمال الجزيرة العربية نسب العرب العشاق رفاق القلوب إلى بنى عذرة اليمانيين ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني عن رجل من بنى عامر رهط مجنون ليلى قوله : إنما يقتلُ العشاقُ هذه اليمانية ضعافُ القلوب (١) . وينقل عن آخر قوله : إنما يكون هذا فى هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها ، الصعلة (الضيقة) رؤوسها (٢) .

ولعلنا نفضل نعت هذا اللون من الحب بالمأساوى بدلاً من العذرى أو العنيف ؛ لأننا نرى أن هذا النعت أكثر دقة فى الدلالة عليه ، فهو فى حقيقته مرض عضال سببه دوافع سياسية واجتماعية التقت مع الحاجة إلى ملء فراغ مجتمع أفاءت عليه الفتوح الإسلامية وخيرات كثيرة ، وإن كان الإغداق على الحجاز واضحاً إلا أن حلقات مشاهدة مباريات النقنض فى جنوب العراق ، وأحوال العشاق المتيمنين فى نجد وبوادي الحجاز تكشف عن هذا الفراغ المرتكز على توفر أسباب الحياة بشكل لم يعهده الجاهليون من قبل مما سيمر بنا .

● الحب المأساوى والتصوف :

يذكر الغزالي فى كتابه « الإحياء » أنه رأى مجنون بنى عامر فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى وجعلنى حُجَّةً على المحبين (٣) .

ويذكر ابن طولون الدمشقى قول محيى الدين بن العربى فى الفتوحات المكية : هو من نسب إليه حكم سلطان الحب ، وقد جاءت إليه محبوبته ليلى يوماً وهو يقول : ليلى ليلى ! ويلقى الثلج على صدره فتذيه حرارة فؤاده ، فقالت له : يا قيس ، أنا ليلى .

(١) الأغانى : ٨/٢ ، ط تونس .

(٢) الأغانى : ٦/٢ ، ط تونس .

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٦ هـ ص ٤٩٣

فنظر إليها وقال لها : إليك عني ، فإن حبك شغلني عنك (١) . ويعلق ابن عربي على ذلك بقوله : وهذه اللفظ حال ظهر في هذا الشأن من سلطان الحب ، لأن صورتها الظاهرة لما شاهدها حالت بينه وبين ما كان في خياله منها ، فإن خيالها اللفظ منها في عينه ، فلما أحس بفقد ذلك اللفظ لمشاهدتها قال لها : إليك عني ، وفي ذلك قلت :

وعزة الحب أن الحب أشهدني عين الحبيب الذي أهواه في خلدي

بحيث لو ظهرت في الحسن صورته لعين حبي لم أنقص ولم أزد

فحال حضرته كحال غيبته وهذه صفة لم تُدر في أحد (٢)

بها خصصت فلا شخص ينازعي فيها وأهل الهوى عنها على حيد

ويروى عن الجنيد قوله : مجنون بنى عامر كان من أولياء الله عز وجل ،

فستر شأنه بجنونه (٣) .

هذه هي أهم الأقوال القديمة التي تنسب قيس ليلي إلى التصوف ، والحق أنني أستغرب ذلك ، فقيس عاشق لم يوفق في الزواج ممن أحب فأصابه ذلك بصدمة عاطفية شديدة لم يحاول هو نفسه أن يساعد نفسه على الخلاص من تأثيرها ، كما رأينا في قصته السابقة ، بل أصر على الاستمرار فيما هو فيه إصراراً شديداً . لقد استغرق قيس في حب ليلي أشد استغراق . والتصوف باب آخر وطريق آخر هو الاستغراق في حب الله بأساليب معلومة أهمها الزهد في متاع الحياة ، وقيس كان شديد الرغبة في الزواج من المرأة التي هام بها فؤاده ، ولم يصر إلى ما صار إليه إلا بسبب حرمانه من هذا الزواج .

ويذكر غنيمي هلال أن الشخصية الصوفية لقيس كما أرادها الصوفية أن

(١) ابن طولون : بسط سامع المسامر ص ٩

(٢) المرجع السابق .

(٣) السابق ص ١٠٦

تكون جاءت من باب تأويل أخباره ، والتوسع فيها لضمه إلى صفوفهم (١) ،
وقد ذكر من سمات هذه الشخصية الجنون والإغماء ومباشرة حيوانات
الصحراء ، وامتناعه عن صيد الغزلان ، ونحن نرى أنه كان يشفق على
الغزلان فقط لشبهها بليلى ، ولم يؤثر عنه أنه حرم صيد ولا ذبح أية حيوانات
أخرى !

* * *

● رؤية المحدثين لظاهرة الحب المأساوى :

* أثر الإسلام :

يجمع دارسو الأدب العربى من المحدثين على أنه لا تفسير لظاهرة الحب
العذرى ذلك الحب المأساوى إلا فى الإسلام ، ويرى الأستاذ الدكتور شوقى
ضيف أن هذا الغزل الذى شاع فى بوادى نجد والحجاز قد أصبح ظاهرة عامة
تحتاج إلى تفسير ، وأن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ،
وبرأها من كل إثم ، وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة
والمدينة ، ولا ما طوى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق
الفاضل على نحو ما مر بنا عند الأحوص والعرجى (٢) .

وفى اعتقاده أن نسبة هذا اللون من الحب والشعر الذى عبر عنه إلى
الإسلام محتاج إلى كثير من التمهيط ، ذلك أن الإسلام لا يمكن أن يكون
سبباً ولا دافعاً إلى أن يفرغ رجلٌ لحب امرأة لا ينشغل بغيرها من أمور الحياة ،
ولا يفكر إلا فيها ولا يهتم إلا بها حتى إذا لم ينلها شرد عقله ومزق ملابسه
وسار عارياً فى الفياقى يقذف من يقترب منه بالحجارة ، كما فعل مجنون ليلى
قيس بن الملوح ، إنه لا يعنى إلا الكلام الذى يتضمن اسمها أو ذكراً لها ،

(١) د . غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٩٤

(٢) د . شوقى ضيف : العصر الإسلامى ص ٢٤٢

ولا يقول قولاً إلا وهى محوره وغايته ، وكل موهبته الشعرية مسخرة لها تنطق بانشغاله الكامل بها وحدها وببكاائه الدائم لأجلها ، إنه يتلمس إليها كل سبيل ؛ يأوى إلى أمير الصدقات من أجل أن يتوسط له فى الزواج منها أو يسعى لأن يكون فى ركابه من أجل أن يراها ، ويختبئ عند هذه المرأة أو تلك ليتحسس أخبارها أو لتقع عينه عليها حتى تضطر المرأة إلى مصارحته برغبتها فى مغادرته مسكنها خشيةً عليه وعليها .

هل يكون الإسلام بكل ما فيه من حث على العمل والعلم مستولاً عن مثل هذه الشخصية المريضة الفارغة يدها من كل عمل والفارغة العقل من كل علم ؟ وها هو جميل بثينة يسير فى نفس الاتجاه ، ولكن بجنون أقل وبرزانة أكبر فى قوله :

يقولون جاهد يا جميل بغزرة وأى جهاد غيرهن أريد ؟

هل الانشغال بامرأة أياً كانت عن كل أمور الحياة والفراغ للغزل فيها نموذج طيب للشخصية التى تنسب إلى الإسلام ؟

لا يستطيع أحد أن ينكر ما تُحدثه الصدمة العاطفية فى نفس الإنسان من آلام مبرحة ، ولكن ثمة فرق بين إنسان فارغة حياته من العمل والحياة وشئونها ومتطلباتها ، وبين إنسان مشغول فى حياته بما يجعل المرأة جزءاً من الحياة وليست كل الحياة ومحور الاهتمام الوحيد .

وبين أيدينا الشعر الجاهلى الذى كان ألمُ الفراق الأبدى للمحجوبة هو هاجسه الأول بسبب ظروف الحياة وما تتطلبه من رحيل دائم وراء موارد العيش القليلة ، ومع هذا فالإنسان العاشق فى هذه البيئة القاسية كان قوى النفس قادراً على التماسك إزاء أقوى صدمات الحب ممثلة فى الفراق الذى لا لقاء بعده مع المحجوبة .

ونحن نقرب فى دواوين الشعر الجاهلى ومجموعاته المتعددة فلا نرى أبداً إنساناً يقول : إن جهاده وعمله كله هو فى ميدان النساء ، كما قال جميل ،

أو كما هي حياة أصحاب هذا اللون من الحب . لا نرى إنساناً جاهلياً يفعل هذا مطلقاً ، وإنما هو الفراغ الذي أتاحتها ثروات البلاد المفتوحة ، وليس مبادئ الإسلام السامية ودعوته المتكررة إلى العمل في قوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ . ودعوته إلى العلم والتفكير في آيات الله في الكون والنفس في قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ .

ونحن نقرب في الشعر الجاهلي فلا نرى شاعراً شرد ذهنه ولا مشى عارياً بعد أن مزق ثيابه ، لأنه لم يظفر بمن أحب ، بل إنك ترى شاعراً كالنابغة الذبياني يرحل هو نفسه عن المحبوبة ، ويعانى لوعة الفراق لأن له أهدافاً أخرى في الحياة ، مع أنه كان يهوى صاحبه هوى عميقاً حاراً ، ومع أنه أبدى بعد أن فارقتها ندماً وألماً شديدين لكنه مضى لغايته متمسكاً قوى الإرادة ، يقول :

وقد أرانى ونعماً لاهيين بها	والدهر والعيش لم يههم بامرار
أيام تخبرنى نعم وأخبرها	ما أكم الناس من حاجى وأسرارى
لولا حباتل من نعم علقْتُ بها	لأقصر القلب عنها أى إقصارِ
فإن أفاق فقد طالت عمائته	والمرء يخلق طوراً بعد أطوارِ
نبث نعماً على الهجران عاتباً	سقى ورعياً لذاك العاتب الزارى (١)

أرأيت كيف يكشف تكراره لاسم نعم عن هوى حار ملتهب ، إنه يصور أيام هوائه مع المحبوبة تصويراً تغلفه الحسرة على هذه الأيام السعيدة الماضية ، وهل هناك أجمل من هذا التعبير عما بلغت الصلة بين العاشقين من قوة ومثانة وعمق في قول النابغة :

(١) ديوان النابغة ص ٢٠٢ ، دار المعارف بمصر ، تحقيق د . أبو الفضل إبراهيم برباب ابن السكيت الذى يزعم أنها منحولة .

أيام تخبرنى نعم وأخبرها ما أكرم الناس من حاجى وأسرارى
ومع كل هذا كان لابد أن يضع حداً لهذا الحب الذى ملك عليه نفسه لأن
المرأة وحبها ليسا كل الحياة ، وإنما المرأة جزء مهم فى الحياة واستمرارها ،
وواضح من الأبيات التالية أن الشاعر العاشق عانى كل المعاناة فى اتخاذ قراره
بالرحيل هو عن محبوبته ، لقد كان ما يشده إليها أقوى مما يدعوه إلى
الإقصار عنها لكنه أفاق مما يسميه عماية طالت كثيراً ، وهو مدرك أن الإنسان
يمر فى حياته بطور بعد طور ، وواضح من البيت التالى أن نعماً كانت تعلم
بنية حبيبها على الرحيل ، وكانت تستشعر المأله ، وكانت تنكر تفكير حبيبها
فى قطع أواصر هذه المودة أياً كان المبرر :

نبئت نعماً على الهجران عاتبة سقيا ورعيا لذاك العائب الزارى

لكن الشاعر ينفذ ما هداه إليه تفكيره ، ويعد العدة للرحيل ، ويشاء القدر
أن تراه محبوبته وأن تلتقى عيناهما فى هذه اللحظة وأن يرتاع قلبه . ويبدو له
جمالها صورة وخلقاً ، لكنه يمضى فى طريقه مغلباً العقل على العاطفة ،
وصحيح أنه يندم ندماً شديداً ، ولكنه لا يتراجع ولا يتردد فهو قد فهم حقيقة
المشاعر البشرية ومرورها بحال بعد حال وطور بعد طور كما سَلَفَ :

رأيت نعماً وأصحابى على عجلٍ	والعيس للبين قد شدت بأكوارٍ
فريعَ قلبى وكانت نظرةً عرضتْ	حيناً وتوفيقِ أقدارٍ لأقدارٍ
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها	لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جارٍ
تلوث بعد افتضال البرد مثرها	لوثاً على مثل دعص الرملة الهارى
أقول والنجم قد مالت أواخره	نحو المغيب تأمل نظرةً حارٍ
ألحة من سنا برقي رأى بصرى	أم وجه نعم بدا لى أم سنا نارٍ
بل وجه نعم بدا والليل معتكر	فلاح من بين أثوابٍ وأستارٍ

إن الحمول التي باتت مهجرةً يتبعن كل سفية الرأي مغياراً (١)

أترى كيف كان الشاعر واقعاً بين شقين من رحي العقل والعاطفة ، وكيف روعت فؤاده هذه النظرة العارضة التي قيل فيها كل شيء بل التي كانت أكبر وأعمق وأنفذ وأبلغ من كل قول ؟ لقد حلت المحبوبة في عينه إذ ذاك خلقاً وخلقاً ، ولكن فات الأوان ، ولا بد له من أن يمضي في سبيله ، وها هو الندم يعتصره اعتصاراً ، وها هو يرى وجه المحبوبة في سنا البرق ، وفي ظلمة الليل ، وها هو يصف رأيه بالسفاهة والتقلب ، ولكن كل شيء قد انتهى ولا سبيل إلى التراجع .

هذا نموذج من رباطة الجأش وقدرة الإنسان على تغليب العقل على العاطفة بالرغم من كل المعاناة المصاحبة لهذا العمل ، وهو ما كان في الجاهلية ، فكيف ننسب إلى الإسلام هذه الشخصيات المتهالكة في الحب تهالكاً لا يليق أبداً بمبادئ الإسلام وتمجيده للعقل والتفكير السديد وعدم الانسياق وراء الهوى ؟

وهل إذا وردت بعض الألفاظ الإسلامية في شعر الحب المأساوي في هذه الفترة نرى ذلك دليلاً على أن هذا الشعر من أثر الإسلام ؟ لقد وردت ألفاظ إسلامية في شعر التهاجي المقذع في البصرة الذي تناول الأعراض تناولاً شنيعاً ياباه الدين والخلق القديم ، ووردت ألفاظ إسلامية في شعر الغزل اللاهية في مكة والمدينة ، فهل ننسب هذا الهجاء المقذع وهذا الغزل الإباحي إلى الإسلام ونجعلها أثراً من آثاره !؟

إن كامل الشيبى يرى أن أخبار الحب العذرى قويت وتكاملت في القرن الأول الهجري ، فكانت معاصرة لاندفاع المسلمين إلى الجهاد والفتوح والمرابطة في الثغور واستبسالهم في الحروب إيماناً بالمبادئ التي كانوا

(١) المرجع السابق .

يحملونها واستهانة بالموت فى سبيلها ، لهذا سمعنا جميل بن معمر العذرى
يقرن حبه بالجهاد فيقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهادٍ غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

فالموت حاضر فى ذهن المجاهد فى رأى الشيبى ، وهو أيضاً نصب عين
المحب وهو سبب الاستهانة به والرضا بالتأسى بقتلى الغرام من أئمة الحب
العذرى (١) .

ولا أرى وجهاً للمقارنة على الإطلاق بين الموقفين ، ولا حتى وجهاً لقرن
ما يسميه الشاعر جهاداً هنا وجهاداً هناك وشهادة هنا وشهادة هناك إلا على
سبيل المزاح والفكاهة ، وهما مزاح وفكاهة غير لائقين بالمرء ! ولا أرى فى
كل حياة هؤلاء المحبين والغزلين فى هذه الفترة من القرن الأول الهجرى إلا
فراغاً وبطالة وإنفاقاً للطاقة البشرية فى هذا المسرب الواحد مسرب المرأة ،
والانشغال بحبها ليل نهار عن كل عمل جاد وكل هدف هام وشريف آخر فى
الحياة بحيث لا أرى نسبة هذا اللون إلى الإسلام ، وجعله أثراً من آثاره ،
فالإسلام فى حد ذاته لم يحدث هذا التحول المرضى فى الشخصية ، وإنما
أحدثه الفراغ الناشئ عن خيرات الفتوح ، وإذا كانت البصرة ومكة والمدينة
قد نالت الكثير من هذه الخيرات والأموال ، فإن نجداً أيضاً نالت نصيباً لا
يستهان به ، وليس أدل على ذلك من التغير الذى طرأ على الحياة النجدية ،
وهل كان يمكن أن يفرغ كل هؤلاء الفتيان للغرام ولقصصه الكثيرة ، وهم
مضطرون إلى العمل من أجل لقمة العيش والسعى المستمر الدائب وراء مصادر
الحياة والكأ فى البيئة الصحراوية الشحيحة ؟

(١) د . كامل مصطفى الشيبى : الحب العذرى ، العدد ١٥٩ من الموسوعة الصغيرة ،

دائرة الشؤون الثقافية والنشر ببغداد سنة ١٩٨٥ ص ٢٣

لقد خشى والد قيس بن ذريح أن تذهب أمواله إلى غير عشيرته إذا تزوج ابنة امرأة غريبة (١) ، وهذا هو سبب رفضه لزواجه منها ، وتظهر الروايات قيس بن الملوح فتى ثرياً يلبس الطيلسان (١) بل يلبس حلل الملوك ، ويركب ناقة كريمة (٢) يعقرها لبعض الفتيات اللاتي التقى بليلى وهى فى صحبتهن ، ولم تشر الروايات إلى أن جميلاً أو كثيراً أو غيرهما من شعراء الحب المأساوى كالمرقش والصمة كانوا يعانون الفقر أو شظف العيش .

ولست أريد أن أقتصر على مثال واحد من الشعر الجاهلى يظهر لنا كيف كان الشاعر العاشق متماسكاً حين يصاب فى حبه بأخطر داء ، وهو داء الفراق الأبدى ، وهو ما كان ينبغى أن يكون أكثر من بعد الإسلام الذى يحث على الفضيلة والتوازن والاقتصاد فى الحزن ، والاقتصاد فى الفرح ﴿ لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (٣) . والذى لا يقر أبداً مثل هذا الانتقال من التماسك إلى التهالك ، ولنقف عند لبيد العامرى فى قوله :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها وزمامها
مرية حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرامها

وبعد أن يذكر المعالم التى تمر بها فى رحلة الفراق الأبدى يقول :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها
وأحب المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ظلعت وزاغ قوامها (٤)

أترى أكثر من هذا عزيمة قوية ورباطة جأش وقدرة على تلقى الصدمة والتعامل معها . . إنه لا يتبع المحبوبة ولا يستعطفها ولا يجعلها كل شغله وكل

(١) الأغاني : ١٣/٢ ، طبعة دار الكتب ، تزيين الأسواق للأنطاكى ص ٥٤
(٢) ابن طولون : بسط سامع المسائر ص ١٧ (٣) سورة الحديد ، آية (٢٣) .
(٤) ابن النحاس : شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات . بيروت ، دار
الكتب العالم سنة ١٩٨٥ ص ١٣٨

حياته بل هو يدعو نفسه إلى قطع لبانة من تعرّض وصله مع أن محبوبته لا ذنب لها في هذا الفراق ، إنما هي واحدة من عشيرة كبيرة ترحل أينما رحلت ، وبقدر ما يعبر الشاعر عن الأسى واللوعة لرحيل نوار وبعدها ، بقدر ما نراه قوياً رابط الجأش في موقفه ؛ إنه يحسم الأمر حسماً ويقطع هذه العلاقة قطعاً ، وربما بدرت من المحبوبة بادرة لا نعرفها أثناء هذا الرحيل دعتة إلى اتخاذ هذا الموقف الصارم ، لكن شأنه شأن الشعراء الجاهليين لا يتبع أبداً امرأة زحلت ، ولا يمزق ثيابه ، ولا يشرد عقله ولا يصر على علاقته بها إصرار جميل الذي يذكر أنه متابع لبثينة نهاراً وليلاً لا يعوقه عائق عن ذلك ، ولو تعرّض له ألف محارب ولو قطعت رجله قطعاً !

ولو أن ألفاً دون بثنة كلهم غيارى وكل حارب مزعم قتلى
لحاولتها إما نهاراً مجاهراً وإما سرى ليلاً ولو قطعت رجلى (١)

إن الإنسان الشريف العظيم أو حتى الإنسان السوى ، ومنذ أقدم العصور يكون إصراره على مبدأ ، على هدف قيم في الحياة ، أما إصراره على حب امرأة بعينها وجعل حياته كلها وجهاده كله من أجل امرأة فليس بالذي يستحق التمجيد والتشريف ، وليس ذلك بالشئ الذي يؤهله لمرتبة سامية في الحياة ، فضلاً أن ننسبه إلى دين عظيم ونجعله أثراً من آثاره ، وإنما هو أثر من آثار البطالة وفراغ الحياة والفكر ، وقد استغرقت هذه الظاهرة - ظاهرة هذا اللون من الحب فترة قصيرة جداً من تاريخ الإسلام وتاريخ الأدب العربي هي نصف قرن لا غير ، وكان وراءها الفراغ والسياسة كما رأينا ، وليس الإسلام ومبادئه الخنيفة السامية ودعوته إلى التفكير المثمر والعمل الجدى .

* * *

(١) الأغاني : ٩٤/٨ ، ط التونسية .

● العفة والسمو في الحب المأساوى :

يتفق أكثر الباحثين المحدثين في هذا الحب وآثاره في الشعر العربى على أنه حب عفيف سام فى مقابل الحب الحسى الذى شاع التعبير عنه فى مكة والمدينة ، وأيضاً فى مقابل الحب الحسى الذى نجمه فى الشعر الجاهلى ، ويطلق الدارسون العنان لأقلامهم فى تصوير السمو والشفافية والرقى فى هذا اللون من الحب ، فهو عند د . غنيمى هلال حب تتضاءل لدى صاحبه النظرة إلى المتع الحسية ، إذ يطغى عليها حرص المحب على استدامة عاطفته فى ذاتها (١) ، وهذا الحب يسمو على المتع الحسية التى تهون لدى المحب بقدر ما يعظم شأن العاطفة فى ذاتها ، ووسيلة السمو بهذه العاطفة على هذا النحو هو الحرمان ، أى حرمان المحب من الظفر بحبيته سواء كان هذا الحرمان إرادياً أو نتيجة أسباب اجتماعية وتقاليد سائدة خارجة عن إرادة المحب الذى لا يسلو (٢) ، وهو حب عفيف سام عند د . شوقى ضيف يصلى المحبُ بناره ويستقر بين أحشائه حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه أو الانصراف عنه (٣) .

وتبدو لى نظرة د . شوقى ضيف أقرب إلى الواقعية من نظرة د . غنيمى هلال - رحمه الله - الذى أسبغ على هذا الحب كل ألوان السمو ، وجعله فوق متع الحس ، بل جعل المحب حريصاً على استدامة عاطفته فى ذاتها ، وهى معان لا أراها خطرت على بال هؤلاء المحبين ، فقد كان كل همهم الظفر بمحوباتهم لا أكثر ولا أقل ، وتبدو النظرة الواقعية للدكتور شوقى ضيف فى جعل هذا الحب أقرب إلى الداء وإلى المحنة .

(١) د . محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٧ ،

القاهرة ، دار نهضة مصر ، د . ت .

(٢) المرجع السابق .

(٣) د . شوقى ضيف : العصر الإسلامى ص ٣٥٩

ونرى د . غنيمي هلال ينسب هؤلاء المحبين إلى الروحانية والبعد عن المتع
الجسدية وإلى الزهد (١) ، وإلى جعل الجهاد فى الحب قرين الجهاد فى سبيل
الدين وإلى العفة التى ضرب لها مثلاً بعفة المؤمن فى قصة يوسف وزليخا فى
القرآن الكريم (٢) ، ومسلك العذريين عنده يقارن بمسلك الزهاد الأتقياء إذ
أنهم وجدوا طريقاً فيه بين زهدهم ومطالب عفتهم ، وأطاعوا فى حبهم العف
قلوبهم ودينهم (٣) ، ورآهم يبررون حبهم بالقضاء والقدر ، فيذعنون له
باعتباره من قضاء الله الذى يرجى عليه الثواب (٤) !

ومع كل هذا فنحن نقرا أشعار هؤلاء المحبين ، فلا نرى إلا دموعاً وآهات
تعبّر عن رغبة عارمة من أجل اللقاء مع المحبوبة ، وهى رغبة عارمة لا للمزايا
المعنوية والروحية التى تتمتع بها المحبوبة ، وإنما لمزايا جسدية يعلن عنها إمامهم
بحق قيس بن الملوّح ، فهو يصف جسم ليلى ، وقد زها فى الثياب كما زها
الغصن النضير ، وقد تزايد نورها ، فأشعل هذا فى دمه نار الحب إشعالاً
يقول :

زها جسم ليلى فى الثياب كما زها مع الغصن غضُّ قد تزايد نورها
وما بال ليلى ليس تخلص من دمي وتعلم أن النار حامٍ سعيها (٥)

فهل نرى فى هذا إلا رغبة عارمة يؤججها هذا الجسم الفاتن للمحبوبة ،
أهنالك أكثر من ذلك تصریحاً بالحب المادى ؟

ويمر قيس بن الملوّح ذات يوم فيرى زوج ليلى وهو جالس يصطلى فى يوم
شات فيقول :

(١) د . محمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية ص ٣٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٤

(٣) نفس المرجع ص ٣٥

(٤) نفس المرجع ص ٣٦

(٥) ابن طولون الدمشقى : بسط سامع المسار ص ٤٦

بربك هل ضمنتَ إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلتَ فاها
وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الأتحوانة في نداها

وتمضى الرواية زاعمة أنه صارح زوجها بهذا القول ، فرد عليه قائلاً :
اللهم إذ حلّقتنى فنعم . فقبض المجنون بكلتا يديه قبضةً من الجمر ، فما فارقتها
حتى خرّ مغشياً عليه ، فسقط الجمر مع لحم راحتيه (١) .

هل هناك أدلُّ من ذلك على الشهوة العارمة التي كانت تحرك هؤلاء المحبين
وعلى رأسهم قيس بن الملوّح ؛ وهل تأملوا في المرأة جمال روحها وسمو
نفسها ورقة قلبها وعذوبة حديثها ، إنى لا أرى إلا ذكراً للجسد ومحاسنه ،
وها هو قيس ليلى يقارن بينها وبين الغزالة فيقول :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

وها هو قيس يتمنى أن تكون ليلى عند مضجعه في قوله :

ألا ما لليلى لا ترى عند مضجعى بليلٍ ولا يجرى بهالك طائر (٢)

ولا نكاد نرى عند قيس بن الملوّح إلا هذا الوصف لها بالحياء والقصد في
الكلام ، وهو وصف « وحيد » في بيت وحيد وبعد أن يتناول محاسنها المادية
في قوله :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمرٌ توسط جنح ليل أسود
موسومةٌ بالحسن ذات حواسد إنَّ الجمال مظنةٌ للحسد
خودٌ إذا كثر الكلام تعوذت بحمى الحياء وإن تكلم تقصد

وليس معنى ذلك أن هؤلاء الشعراء كانوا إباحيين إباحية امرئ القيس ولا
عمر بن أبى ربيعة اللذين صوروا بالتفصيل مغامراتهما الغرامية المنافية لما يتطلب
الخلق الفاضل الكريم ، لكن ذلك لا يعنى أنهم كانوا مرتفعين ارتفاعاً تاماً
عن متطلبات الطبيعة البشرية التي كان حرمانهم منها سبباً في بكائهم المستمر ،
وزفراتهم الحارة ، وشكواهم الدائمة ورجبتهم في مجرد أن يروا محبوباتهم أو
مجرد أن يسمعوا أسماءهن إذا تعذر عليهم اللقاء بهن .

(١) المرجع السابق والأغاني : ٢٣٧

(٢) ابن طولون : بسط سامع المسامر ص ٦١

وها هو جميل يصف أيام الشباب مع بثينة مسمىً مواضع اللقاء بينهما
 فى تلك الأيام التى كان فيها يرجل شعره الأسود بالمسك والعنبر ، وحين
 كانت بثينة كلؤلؤة المرزبان قبل أن يعتصر ماء شبابها ، وذلك حين يقول
 لبثينة :

أتنسين أيامنا باللوى	وأيامنا بذوى الأجر
وإذا أنا أغيد غضّ الشباب	أجر الرداء مع المئزر
وإذ لمتى كجناح الغراب	ترجل بالمسك والعنبر
فغير ذلك ما تعلمين	تغير ذا الزمن المنكر
وأنت كلؤلؤة المرزبان	بماء شبابك لم تعصرى
قريبان مربعنا واحد	فكيف كبرت ولم تكبرى (١)

وإذا كان قيس ليلى قد ذكر المحاسن الجسدية لمحبوته ، فهذا هو جميل يذكر
 أيضاً الجمال الجسدى ، بل لا يذكر غير الجمال الجسدى ، كما فعل قيس ،
 وهل هناك دليل أقوى وأوضح على ذلك من قوله :

وأنت كلؤلؤة المرزبان بماء شبابك لم تعصرى

ونحن نقلب فى هذه الغزليات ، فلا نرى أبداً كما أسلفت ذكراً للجمال
 المعنوى للمحوبة عند أحد من هؤلاء الشعراء . إنما نرى ذكراً للصفات
 المعنوية للمرأة عند أحد الشعراء الجاهليين وهو النابغة ولا نراها عند أصحاب
 الغزل العذرى ، تأمل معى قول النابغة فى وصف محبوبته نعم :
 بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها

لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار (٢)
 فالشطر الأيمن من البيت تصوير للجمال الجسمى ، ولكنه تصوير غاية فى

(١) ديوان جميل ص ٣٦

(٢) ديوان النابغة ص ٢٠٢ ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٧٠

السمو والروعة والجمال إنه يرتفع بلون المحبوبة إلى أسمى وأرق الأشياء في الكون وهو ضوء الشمس ، وهي في أروع وأكمل مظاهرها ، وهو يقرب هذا الجمال الذي تراه العين بالسلوك الطيب تجاه الأهل وتجاه الجيران ، إذ لا تتعرض بالأذى لمن يحيطون بها عن قرب من الأهل ، ولا من يحيطون بها من الجيران ، فهي تضيف إلى جمال الجسد جمال الروح .

ومن أجل هذا كان لا بد أن نعيد النظر في التعميم الذي أطلقه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بقوله : إن الجاهليين كانوا يصفون النساء كما يصفون الإبل^(١) في مقابل ما يراه رقياً عظيماً في وصف العذريين للنساء ، صحيح أننا نلاحظ عند الجاهليين وعند امرئ القيس بصفة خاصة هذا الوصف غير الكريم للمرأة ولمغامراته معها ، وقد اضطر النابغة بأمر الملك النعمان إلى وصف الجمال العارى في قصيدته المتجردة ، ولكن هناك في مقابل ذلك هذا التصوير السامى للمرأة بنور الشمس وكرم الخلق مع الناس في مقابل التصوير الحسى للمرأة في الغزل المأساوى الذى لا تنطبق عليه كل الأوصاف التى حلقت به فى أعلى عليين وجعلته عاطفة خالصة مقصودة لذاتها^(٢) .

فالعفة فى هذا اللون من الغزل عفة اضطرارية ، وهو اضطرار تكشف عنه كل هذه الدموع واللوعة والحرقه والرغبة العارمة فى نيل الحد الأدنى من الوصال مع المحبوبة فى مجرد الرؤية بسبب الحرمان منها ، وهذا التهالك الشديد فى الحب بسبب ما ذكرناه من الفراغ والبطالة التى جعلت طاقة هذا الشباب تنصرف إلى هذا المسرب الواحد من التعلق بالمرأة وجعلها محور الاهتمام ليل نهار بل العمر كله !

لقد ظل جميل على حبه لبثينة حتى تجاوز سن الشباب ، وظل حريصاً على الدفاع عن العفة فى حبه لها فى قوله :

(١) المرجع السابق .

(٢) د . غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٧

وانى لأرضى من بثينة بالذى لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبال نظرة العجلى وبالحول تنقضى أوآخره لا نلتقى وأوائله

ومما يدل على أن جميلاً كان بهذه الأبيات يريد أن يبدد تلك الأقاويل التي تحمل ارتياباً في علاقته ببثينة ، وفي لقاءاته معها ما يذكر من أن والد بثينة وأخاها كانا ينتظران غرة من جميل ليقتلاه في إحدى لقاءاته معها ، فسمعاها يقول لها : يا بثينة أرايت ودى إياك وشغفى بك ؟ ألا تجزيه ؟ فتساءلت الفتاة بماذا ؟ فرد جميل : بما يكون بين المتحابين . وتذكر الرواية أن بثينة أنكرت قوله هذا ، وهددته إن هو عاد إلى هذا التعريض بالريبة الأ يرى وجهها أبداً ، فضحك جميل وذكر لها أنه كان يريد أن يمتحنها وأنها لو كانت أجابته لما أراد لعلم أنها تجيب غيره أيضاً !! بل إنه لو رأى منها مساعدة على ذلك لضربها بسيفه ، وذكر لها الأبيات السابقة ، وتمضى الرواية فتذكر أن والدها قال لأخيها عندئذ : قم بنا ، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها ، وتركاهما ! (١) .

ولم يخامر الشك في لقاء جميل وبثينة أقرب أهلها إليها في أمر جميل فحسب ، وإنما خامر الشك في هذه العلاقة غير أهلها ، إذ يروى العباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يحتضر فقال له جميل : أتظن رجلاً عاش في الإسلام لم يزن ولم يسرق ولم يسفك دماً حراماً ناجياً من هول يوم القيامة . وحين سأله العباس من يكون هذا الرجل ، رد جميل بقوله : إنى لأرجو أن أكونه . فتبسم العباس ، وقال له : أبعد إتيانك بثينة عشرين سنة ؟! فأكد له جميل تأكيداً قاطعاً أنه لم يحدث نفسه بحرام منها قط فضلاً عما وراء ذلك ، فجميل يؤكد براءة حبه لبثينة شعراً ونثراً إزاء ريبة

(١) الأغاني : ١٠٥/٨ ، الطبعة التونسية .

الناس فى أمره وكانهم لا يصدّقون سموّ حبه لها حتى تذكر الرواية الأولى
تصنّت أبيها وأخيها أثناء محادثته لها منفردين ، والناس حتى آخر يوم فى حياة
جميل لا يصدّقون ارتفاع هذا الهوى عن الريبة حتى يدعو جميل على نفسه
بالأ تناله شفاعة الرسول ﷺ إن كان قد حدث نفسه بإثم فى أمر بثينة ! .

وقد أورد صاحب الأغانى رواية تدل على مصدر هذا الشك فى طبيعة
علاقة جميل ببثينة ، وهى رواية تحمل - إن صدقت - على إعادة النظر فى
موضوع العفة فى أمر هؤلاء المحبين ، خاصة وأن جميلاً بالذات له فى أذهان
معظمنا أكثر صور هذا الحب عفة ونقاء وطهارة وبعداً عن الشبهة ، فقد ذكر
الهيثم بن عدى وأصحابه أن جماعة من بنى عذرة حدثوا أن جميلاً رصد بثينة
ذات ليلة فى نجعة لهم حتى إذا صادف خلوةً منها سكر ودنا منها ، وذلك فى
ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد ، فحذفها بحصاة فأصابته بعض أترابها ،
ففزعت وقالت : واللّه ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن ! فقالت
لها بثينة وقد فطنت : إن جميلاً فعل ذلك فأنصرفى ناحية إلى منزلك حتى ننام
فأنصرفت وبقيت مع بثينة أم الجسير وأم منظور فقامت إلى جميل فأدخلته
الخباء معها وتحدثا طويلاً ثم اضطجع واضطجعت إلى جانبه ، فذهب النوم
بهما حتى أصبحا وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها ، فرآها
نائمة مع جميل فمضى لوجهه حتى يخبر سيده ، ورآته ليلى والصبوح معه ،
وقد عرفت خبر جميل وبثينة فاستوقفته فجاءت الجارية فنبهتهما ، فلما تبينت
بثينة الصبح قد أضاء ، والناس منتشرين ارتاعت وقالت : يا جميل ! نفسك
نفسك ! فقد جاءتى غلام نبيه بصبوحى من اللبن فرآنا نائمين ! فقال لهما
جميل وهو غير مكترث لما خوفته منه :

لعمرك ما خوفتني من مخافةٍ بين ولا حدرتني موضع الحذر
فأقسم لا يلقى لى اليوم غيرةً وفى الكف منى صارم قاطع ذكر
فأقسمت أن يلقى نفسه تحت النضد ، وقالت : إنما أسألك ذلك خوفاً على

نفسى من الفضيحة لا خوفاً عليك ، ففعل ذلك ونامت كما كانت ، واصطبحت أم الجسير إلى جانبها وذهبت خادماً ليلى إليها فأخبرتها الخبر ، فتركت العبد يمضى إلى سيده فمضى والصبح معه وقال له : إني رأيت بثينة مضطجة وجميل إلى جنبها ، فجاء نبيه إلى أخيها وأبيها فأخذ بأيديهما وعرفهما الخبر وجاء بأجمعهم إلى بثينة وهى نائمة فكشفوا عنها الثوب ، فإذا أم الجسير إلى جانبها نائمة ، فخجل زوجها وسب عبده ، وقالت ليلى لأخيها وأبيها : قبحكما الله ! أفى كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور فيها بكل قبيح ! فبحه الله وإياكما ! وجعلا يسبان زوجها ويقولان له كل قول قبيح . وأقام جميل عند بثينة حتى أجه الليل ، ثم ودعها وانصرف . وحذرتهم بثينة لما جرى من لقائه إياها فتحامتة مدة ، وقال فى ذلك :

إن هتفت ورقاء ظلت سفاهةً تبكى على جميلٍ لورقاء تهتفُ
فلو كان لى بالصرم يا صاح طاقة صرمتُ ولكنى عن الصرم أضعفُ (١)

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى يلتقى فيها جميل ببثينة ، فقد تعددت الروايات التى تذكر كيف كان يحتال للقائها فى بعض الليالى منها أنه تنكر فى ثياب راع لبعض الحى ، وعندما فوجيء بوجود ضيفان عند بثينة ذكر لها أمامهم أنه مسكين مكاتب ، وقد احتالت بثينة بإلقاء ثوب لها فى النار فشغلت القوم عن جميل ، وحين ذهبوا حبسته عندها ثلاث ليالٍ (٢) .

وذكر الأصفهاني أيضاً أن بثينة واعدت جميلاً للالتقاء فى بعض المواضع فأتى لوعدها ، وجاء أعرابى يستضيف القوم فأنزلوه وقروه فقال لهم : إني رأيت فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرقين متوارين فى الشجر وأنا خائف أن يسألوا بعض إبلكم ، فعرفوا أنه جميل وصاحبه فحرسوا بثينة ومنعوا من الوفاء بوعدده ، فلما أسفر الصبح انصرف كثيراً سىء الظن بها ، ورجع إلى

(١) أغانى : ١١٥/٨ - ١١٧ ، الطبعة التونسية .

(٢) المرجع السابق : ١١٤/٨

أهله ، فجعل نساء الحى يقرّعه بذلك ويقلن له : إنما حصلت منها على
الباطل والكذب والغدر ، وغيرها أولى بوصولك منها ، كما أن غيرك يحظى
بها ! فقال فى ذلك :

أبّين إنك قد ملكتِ فأسجحى وخذى بحظك من كريم واصلِ (١)

ولاشك أن هذه الروايات تكشف لنا - إذا صحت - عن جانب من
العلاقة بين أصحاب هذا الغزل البدوى ومحبوباتهم ، وتحفزنا على إعادة
النظر فى الصورة التى رسمت لهذا الغزل فى الأذهان باعتباره لونا من الغزل
العفيف الطاهر الشريف السامى الذى يعكس حياة كنها روحانية وصفاء يعلو
على المادة والحس ويحلق فى آفاق السمو والرقى .



● الشك فى أخبار وأشعار الحب المأساوى :

كان الدكتور طه حسين أول من أحيا الاهتمام بهذا اللون من الغزل فى
العصر الحديث ، وقد شك فى حقيقة أشهر شعرائه وهو قيس بن الملوّح شكاً
عنيفاً ، كما شك فى أمر وضاح اليمن ، وأيضاً شك فى الأخبار والروايات
التي تضاف إلى جميل بثينة وقيس لبنى .

واستند طه حسين فى شكه فى حقيقة قيس بن الملوّح إلى اختلاف الرواة فى
اسمه ، وكذلك اختلافهم فى قصة لقائه بليلى (٢) . بالإضافة إلى سبب آخر
هو تبرؤ صاحب الأغانى من أخبار قيس مع أنه أورد له ما يزيد على سبعين
صفحة فى الجزء الثانى من كتابه !

نحن إذن أمام قضية بالغة الخطورة فى أمر أكبر شعراء هذا اللون من

(١) المرجع السابق : ١١٥/٨

(٢) السابق : ٦/٢

الغزل ، ولا يمكننا أن نقبل على دراسة شعره إلا بعد أن نحيط بالأمر إحاطة كاملة . . صحيح أن الشعر نفسه بين أيدينا ، وصحيح أن النص الشعري هو محور الدرس أكثر من حياة صاحبه لكننا أمام قضية الشك فى نسبه إلى صاحبه ، وعلى هذه الأسس القوية نحن محتاجون إلى تدبر الأمر برمته .

هناك أولاً اختلاف الرواة فى اسم قيس ليلى ونسبه . فابن طولون الدمشقى يورد سلسلة طويلة من الرواة تبدأ بأبى المحاسن يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن الصالحى وتنتهى برباح بن حبيب العامرى وعن طريقها يذكر أنه قيس ابن الملوخ بن مزاحم^(١) ، إلا أن أبا عمرو الشيبانى يذكر أن أبا بكر الوالى أخبره عن بعض ولد على بن أبى طالب ، أنه هو قيس بن معاذ العقيلى^(٢) ، ويقول أبو العالية : إنه الأقرع بن معاذ ، ويذكرون أنه كان فى بنى عامر ثلاثة مجانين هم معاذ ليلى ، وهو معاذ بن كليب أحد بنى عامر بن عبيد ، وقيس ابن معاذ ، ومهدى بن الملوخ الجعدى . وذكر ابن طولون أن الصواب إنه قيس بن الملوخ . والله أعلم^(٣) .

بل إن الرواة يختلفون أيضاً فى نسب ليلى وكنيتها إذ يذكر على بن معمر بن المنى بعد سلسلة طويلة من الرواة أن ليلى مجنون بنى عامر التى كلف بها هى ليلى بنت مهدى بن سعد بن مهدى بن ربيعة بن الحريش . وقال بعضهم : ليلى بنت ورد من بنى ربيعة^(٤) .

وحتى يتبين لنا مدى انشغال الناس فى هذه العصور بهذه القصص ، ومدى اهتمامهم بها دعنا نذكر كنموذج لهذا الاهتمام سلسلة الرواة لنسب ليلى :

أخبرنا أبو البقاء محمد بن العماد العمرى ، أنا أبو الوفاء إبراهيم بن

(١) ابن طولون الدمشقى : بسط سامع المسار ص ١٠

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

محمد الحافظ ، عن أبي بكر بن المحب ، أنا أبو محمد المطعم ، أخبرتنا
كريمة الزاهدة ، أنا ابن ناقة ، أنا الزينبي ، أنا التوخى ، أنا ابن حيوية ، أنا
ابن المرزيان ، أنا محمد بن خلف ، أنا أبو العباس الأحول ، قال : قال لى
على ابن معمر ابن المثني (١) :

أرأيت مدى اهتمام الناس بأمر هذا الحب وهؤلاء المحبين فى تلك العصور
حتى يحرصون كل هذا الحرص على أخبارهم وقصصهم ويتناقلونها عبر مثل
هذه السلسلة الطويلة من الرواة؟!

والرواة لا يختلفون فقط فى نسب ليلى بل هم يختلفون أيضاً فى كنيثها ،
ففى هذه الكنية قولان ، أحدهما : أنها أم مالك وبذلك كناها المجنون فى
شعره ، والثانية : أنها أم الخليل ويذكر ابن طولون أن المجنون كناها فى بعض
شعره أم عمرو (٢) .

ولا يقتصر اختلاف الرواة على اسم المجنون ونسبه ولا على نسب ليلى
وكنيثها فقط ، بل إن هذا الاختلاف يمتد إلى ما هو أهم ، وهو بداية معرفة
المجنون بليلى . وهو اختلاف شديد حقاً .

إذ تذهب إحدى الروايات إلى أنه كان فى بنى عامر جارية من أجمل النساء
لها عقل وأدب ، فبلغ المجنون خبرها وما هى عليه من الجمال والعقل ، وكان
صبا بمحادثة النساء فعمد إلى أحسن ثيابه فلبسها ونهياً إليها فلما جلس إليها
وتحدث بين يديها أعجبه ووقعت بقلبه وظل يومه ذلك يحدثها حتى أمسى
فانصرف إلى أهله فبات بأطول ليلة حتى إذا أصبح مضى إليها ، فلم يزل
عندها حتى أمسى ، ثم انصرف فبات بأطول من ليلته الأولى ، واجتهد أن
يغمض فلم يقدر فأنشأ يقول :

(١) ابن طولون : بسط سامع المسامر ص ١١

(٢) المرجع السابق ص ١٢

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزّنتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهّم بالليل جامعُ

وتمضى الرواية فتذكر أنه أدام زيارتها وترك كل من كان يأتيه ، فوقع فى قلبها مثل الذى وقع فى قلبه ، وأنه جاء يوماً يحدثها فجعلت تُعرض عنه وتُقبل على غيره ، تريد أن تمتحنه ، وتعلم ما لها فى قلبه ، فلما رأى ذلك اشتد عليه وجزع ، فلما خافت عليه أقبلت إليه فقالت :

كلانا مظهر للناس بغضاً وكلُّ عند صاحبه مكين (١)

فسرّى عنه فقالت : إنما أردت أن أمتحنك ، والذى لك عندي أكثر من الذى لى عندك ، وأنا معطية الله عزّ وجلّ عهداً إن أنا جالست بعد يومى هذا رجلاً سواك حتى أذوق الموت إلا إذا كرهه علىّ ذلك .

فانصرف وهو أسرّ الناس ، وأنشأ يقول :

أظن هواها تاركى بمضلةٍ من الأرض لا مال لى ولا أهلُ
ولا أحد أفضى إليه وصيتى ولا وارث إلا المطيئة والرخلُ
محا حبها حب الالى كن قبلها وحلت مكاناً لم يكن حلّ من قبلُ (٢)

وهناك رواية ثانية تذكر أن قيساً تعلق قلبه بلىلى وهما صغيران ، وكانا يرعيان أغناماً لقومهما ، فلما كبرا حجت لىلى عنه ، وأنه قال فى ذلك :

تعلقت لىلى وهى ذات ذؤابةٍ ولم يبد للأتراب من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم (٣)

وفى رواية ثالثة أن قيس بن الملوّح بن مزاحم بن قيس بن قيس بن عنبسة خرج على ناقة له كريمة وعليه حلة وطيلسان فيبينما هو يسير إذ مر بامرأة من

(١) الأغانى : ١٦/٢

(٢) بسط سامع المسامر ص ١٤

(٣) السابق ص ١٦

بنى عقيل يقال لها كريمة ومعها نسوة يتحدثن ، وكانت امرأة جميلة فلما رآته عرفته وقالت للنسوة : هذا قيس ، فدعونه إلى النزول والحديث معهن ، فنزل وعقر لهن ناقته وظل عندهن يحدثهن ويحدثنه وينشدهن ، وتمضى الرواية فتذكر أن النسوة رأين فتى من الأعراب عليه برودة من برودهن يسوق معزى له فأقبلن عليه وتركن قيساً مما أغضبه ، وأن قيساً ذكر ذلك فى أبيات له ، يذكر عقره لناقته لهن بينما هن يقرنّ وصله بوصل رجل كمنازل ، وأنهن قعقعن الحلّى لمنازل هذا بينما لم يسمع منهن قيس قعقعة الحلّى ! ويذكر أنه لو ناضل منازل فى الخلاء لغلّبه لكن مناضلاً هذا - ربما لسوء أدبه - يمكن أن يغلب قيساً فى المنايذة بالكلام ! يقول قيس :

أعقر من أجل الكريمة ناقتى ووصلى مقرون بوصل منازلِ
 إذا جاء قعقعن الحلّى ولم أكن إذا جئت أرجو صوت تلك الخلاخلِ
 إذا ما انتضلنا فى الخلاء نضلته وإن يرمّ رشقاً عندهم فهو ناضلى (١)

وهذه الرواية تُذكر على نحو آخر ، فقد مر قيس بامرأة من بنى عقيل كان بنات الحى يجلسن عندها يتحدثن وينشدن الأشعار ، فدعت العقيلية قيساً للنزول حين مر بهن ، وأنشدهن فأعجبن بفصاحته ، وإذا ليلى ابنة مالك قد أقبلت ففتن بها لأول وهلة ، ولاحظت العقيلية ذلك ، فسألت ليلى أن تجلس معهن ففعلت فانحرف قيس نحوها وعلق قلبه بها وعلقته هى أيضاً ، وتذكر الرواية أنه لم ينم ليلته ، وفى الصباح عاد إلى الجلوس إليهن إلا أن ليلى أقبلت على فتى من حبيها وتركت قيساً فكادت نفسه تذهب ، إلا أن ليلى تنشده شعراً يطمئنه إلى مكانته فى قلبها فيقضى يومه كله معهن حتى المساء .

وهذه الروايات أوردناها بهذا القدر من التفصيل لتتضح لنا الحقيقة فى اختلافهما من ناحية ، ولترى فيها هذا اللون من الحياة الفارغة من كل عمل

(١) المرجع السابق ص ١٧

مجد عند فتيات وشباب نجد أيضاً ، فلم يكن هذا الفراغ الذى عاش فيه الشباب قاصراً على مكة والمدينة وحدهما .

أما اختلاف الروايات فواضح ، وخاصة فيما يتعلق ببدء لقاء الحبيبين ، إذ يزعم بعضها أن عشقهما بدأ منذ الطفولة ويزعم البعض الآخر أنه بدأ وهما فى ريعان الشباب . إلا أن الأمر الذى لا يمكن إغفاله حقاً هو تبرئة الأصفهاني نفسه من العهدة فى أخبار قيس ليلى إذ يقول : « وإذ قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن متبع للعيوب » ^(١) ، وقد كان هذا من أكثر ما دعا طه حسين إلى الشك فى حقيقة شخصية المجنون ، وما نسب إليه من أخبار وأشعار إلى جانب ما ذكره من تناقض فى الروايات الخاصة باسمه ونسبه وصلته بليلى .

وشك طه حسين أيضاً فى شخصية وضاح اليمن بسبب اختلاف الروايات حوله أيضاً على أساس « أن رواته يختلفون فيه اختلافاً كثيراً فمنهم من يزعم أنه حميرى ، ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس الذين جاءوا من سيف ذى يزن ليردوا إغارة الحبشة ، ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس » ^(٢) .

وصحيح أن منهج الشك منهج مفيد من أجل الوصول إلى الحقيقة بأكبر قدر من الحيطة ، ولكن اتخاذ اختلاف الرواة فى نسب وضاح اليمن سبباً للشك فى وجوده أصلاً هو مما ينبغى أن نتوقف عنده ولا نسلم به بسهولة ، فشخصية الوضاح شخصية حقيقية لأن ذكره يأتى مع ذكر أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك ، فقد أورد صاحب الأغاني أن أم البنين استأذنت الوليد فى الحج ، وأن الوليد توعد شعراء مكة إن ذكرها أحد منهم أو ذكر واحدة من جواربها ، وأنها وقعت عينها على وضاح اليمن

(١) الأغاني : ١١/٢

(٢) حديث الأربعاء : ٢٣٧/٢

فهويته ، وأن وضاح اليمن ذكرها وصرح بالنسيب بها ، وأن الوليد وجد عليه من يومها ، وكان هذا سبب قتله له (١)

على أن الشك في شخصية الوضاح يبدو هيناً إلى جانب الشك في قيس ابن الملوح نفسه إمام الغزليين في هذه الظاهرة وأغزرهم شعراً وأشهرهم ذكراً إلى درجة تجاوز شهرته الأدب العربي إلى الآداب بالشرقية الأخرى كالآداب الفارسية والتركية فيما مر بنا ، ومع هذا فالروايات في اسمه ونسبه وظروف لقائه بليلي مختلفة أشد الاختلاف ، ومع هذا أيضاً فإن أشعاره إذا استبعدنا منها ما هو بين الوضع والانتحال وما هو ركيك سخي لا يرقى إلى مستوى معظم شعره ، أقول مع هذا الاختلاف فشخصية قيس ليست مجرد وهم لا أساس له في الواقع ، وإنما يرجع هذا الاختلاف في الروايات إلى شدة اهتمام الناس بهذه الشخصية ، ولذلك أضافوا إلى أخبارها وأشعارها ما أصاب صورتها الأصلية بالتشوش والاضطراب ، وإن كان تشوشاً واضطراباً يسهل تبين الملامح الأساسية لها من خلاله .

* * *

(١) الأغاني : ٢٠٦/٦ ، طبعة تونس .

خصائص الفن

بين أيدينا نصوص الأشعار التي قالها المحبون المحرومون على مدى نصف قرن من الزمان كما رأينا ، وهي أهم ما بقى لنا من هذه الظاهرة .

وسنقسم كلامنا هنا إلى شعبتين ؛ أولاهما تتعلق بخصائص هذا الغزل ككل ، والثانية بخصائص كل شاعر على حدة .

أما خصائص شعر هذه الظاهرة فتتناول فيه وحدة الموضوع ، وقضية اللون الواحد ، وقضية العفة والسمو ، وأخيراً اليأس والفقر كباعثين لهذا الشعر ، والقضايا الثلاثة الأخيرة هي مما أثاره د . طه حسين في حديث الأربعاء وهي قضايا تستوجب المناقشة .

ثم نأخذ بعد ذلك في تبيين الخصائص الفنية لأهم شعراء هذا اللون : وهم قيس ليلى ، وجميل بثينة ، ووضاح اليمن ، وكثير عزة .

١ - الشعر

(١) وحدة الموضوع :

هنا سمة أساسية واضحة في هذا الغزل سيطرب لها كل الطرب من يجبون وحدة الموضوع في القصيدة ، فهؤلاء الشعراء قد التزموا بوحدة الموضوع في أشعارهم التزاماً تاماً كاملاً لأنهم في حياتهم وفنهم لم يشغلهم شاغل غيره ، فهو كل حياتهم وكل تفكيرهم واهتمامهم ؛ إنه هذه المرأة التي تعلقت بها قلوبهم ، وهذا التزام أدت إليه الضرورة المنطقية وحدها ، والواقع أنني أرى أن وحدة الموضوع هي الدلالة الهامة على الصدق ، وأرى أن القصيدة العربية لم تُصَبِّ بالتفكك والانفصال بين أغراضها إلا حين غاب الصدق عنها ، وحل محله الزيف والافتعال ، ولعلك توافقني على أن الشاعر الجاهلي الذي عاش حياة الرحيل المستمر ، وعانى الألم الطبيعي المصاحب لهذه الحياة ، وهو فراق الأحباب . . هذا الشاعر كان صادقاً في تعبيره عن محور هذه الحياة ، وهو الرحيل الذي كان محور الفن أيضاً ، فالمحبة ترحل والشاعر يرحل إثر رحيلها رحيلاً يخفف عنه ألمه وعذابه ، فهو يداوى الداء بالداء ، وهو لا يرحل أبداً إلى حيث مضت المحبوبة ، وإنما هو يغادر هذا المكان الذي شهد أيام سعادته ، وأصبح الآن مصدراً لشقائه وعذابه . . والقصيدة الجاهلية النموذجية إذا صحَّ هذا الوصف هي التي تصور انفعال وردَّ الفعل أو رحيل المحبوبة ورحيل الشاعر ، غير أن هذا الشاعر الذي يعاني شعور الفقد بهذا الرحيل المستمر قد يحاول مداواة جراحه بشتى الوسائل ، وهذه المداواة عند امرئ القيس تأخذ شكل مغامراته الماجنة وحياة الصيد اللاهية ، وهي حياة بائسة حقاً في جوهرها لتعويض هذا الشعور العميق المستمر في وجدان الإنسان الجاهلي بفقدانه الحبيب المعرض للرحيل دائماً ، ونستطيع أن نرى في الشعور بالفقدان منبعاً للشعر الجاهلي كله ، فعند زهير نرى فقدان المجتمع كله

للسلام ، وعند عمرو بن كلثوم يتجلى فقدان الكرامة واضحاً ، وعند عنتره يأتي فقدان الانتماء بسبب لونه ، وها هو ليبيد يعكس فقدانه لمحبوته نوار على نفسية البقرة التي فقدت وليدها وآلامها وهي تبحث عنه أسبوعاً كاملاً ، بينما كانت الكلاب الوحشية قد قضت عليه ، ويعكس هذا الشعور أيضاً على نفسية الحمار الوحشى الذى يخشى فقدان أنثاه ، فهو يغار عليها غيرة شديدة :

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها ! (١)

أما عند النابغة الذى بادر هو نفسه إلى الرحيل فنراه يعكس شعوره بالفقد على الثور الوحشى الذى يشبه به ناقته التى حملته فى هذا الرحيل :

مطرِدٍ أفردت عنه حلائله من وحش وجرة أو من وحش ذى قارٍ (٢)

هذا الثور الذى يعانى قسوة الطبيعة وخطر فقدانه الحياة نفسها على أيدي الصائدين وكلابهم الشرسة .

إنه لشيء رائع أن نردّ الأشياء المختلفة إلى شيء واحد ، وصور التعبير المختلفة فى أهم الأعمال الشعرية فى الشعر الجاهلى إلى ذلك المحور الواحد محور فقدان الذى تدور حوله أغراض القصيدة الجاهلية أو معانيها الجزئية بلا تعسف ولا افتعال ، مستندين إلى حقيقة الحياة والفن فى هذه البيئة التى كان فقدان الأحباب فيها شيئاً قائماً ومتكرراً بالفعل . وإذن فقد كان هناك محور أساسى واحد للقصيدة الجاهلية ، وإنما حدث الزيف بعد أن انتقل العرب من حياة التنقل والرحيل وفقدان الأحبة والأمان فى الجزيرة العربية إلى حياة الاستقرار والرّفقه فى العراق والشام ، ومع هذا ظل الشعراء يبدأون قصائدهم بمقدمات زائفة حقاً تصور حياة لا يحيونها بالفعل محوراً فقدان الأحبة والمنازل المهجورة ، وهو الوضع الذى ثار عليه أبو نواس ثورته الشديدة المعروفة والتى يلخصها قوله :

(١) ابن النحاس : شرح القصائد المشهورات ص ١٣٩

(٢) ديوان النابغة ص ٢٠٣ ، وقد وردت « تعشار » بدلاً من « ذى قار » .

تَصِفُ الطَّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا أَفْذُو الْعِيَانَ كَانَتْ فِي الْحُكْمِ
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتَّبِعًا لَمْ تَخْلُ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ وَهْمٍ (١)
أى جمال وأية براعة وأية بساطة ساحرة فى هذا القول الذى يبلور قضية
الزيف التى لحقت بالشعر العربى فى العصور التالية ؟

وها هو المتنبى فى القرن الرابع الهجرى يرى استمرار هذا الزيف فى
مقدمات الشعراء ويبدى به ضيقه الشديد فى قوله :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم أكل فصيحٌ قال شعراً متيم (٢) ؟

وهذا الزيف فى المقدمة الطللية عند شعراء لم يعيشوا حياة الصحراء ، ولم
يعانوا محورها الأساسى من رحيل وفراق مستمر للأحباب ومنظر مؤلم للديار
المهجورة ، أقول ، هذا الزيف هو الذى أصاب القصيدة العربية بما أسماه
الانفصال الشبكى إذ لا رابط بين مقدمتها وموضوعها - وهو المديح خاصة -
إلا رابط الزيف ، فالشاعر ينسب نسبياً لا حقيقة له ثم يمدح مديحاً يصرح فيه
تصريحاً بطلب الجائزة المالية ، وهو نفس ما فعله أبو نواس فى مرحلة من
حياته عندما رحل إلى مصر ، ونفس ما فعله المتنبى أيضاً فى قوله :

تركتُ السرى خلفى لمن قلَّ ماله وأنعلت أفراس بنعماك عسجدا (٣)

ووحدة الموضوع هو ما طالب أرسطو به الشاعر ، وامتدح على أساسه
هوميروس لأنه يختار عملاً واحداً (٤) تدور الأحداث حول محوره ، وهو
أحد الوحدات الثلاث التى اشتراطها أرسطو لنجاح الشاعر المسرحى ، ومن

(١) ديوان أبى نواس ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، د . د . ت ص ٢٠٣

(٢) ديوان المتنبى ، بيروت ، المكتبة الثقافية ، د . د . ت ص ٣٠٢

(٣) ديوان المتنبى ص ٣٧٣

(٤) د . شكرى عياد : كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ، الهيئة المصرية سنة ١٩٩٣

هنا رسخت في أذهاننا ونحن نتعامل مع الشعر العربي الغنائي مسألة وحدة الموضوع ، وهالنا كثيراً أن نرى القصيدة الواحدة تحتوى على موضوعات متعددة بين غزل ومدح ووصف وفخر أو هجاء ، ولعله قد تبين لنا أن وحدة الموضوع مرتبطة بمهارة الشاعر وبراعته ، كما هو واضح من كلام أرسطو عنها في الشعر الملحمي والمسرحي ، وهي مرتبطة في الشعر الغنائي ليس بالمهارة فقط ، وإنما بالصدق أيضاً لأن الزيف وحده - كما رأينا - هو الذى أصاب القصيدة العربية بالتفكك الموضوعى حين اقترنت المقدمة الطللية الزائفة لشعراء لم يعيشوا العصر الجاهلى بالمديح الذى يقدمه صاحبه بضاعة يطلب عليها الأجر طلباً واضحاً صريحاً ، وأمثلة هذا الشعر تشغل حيزاً لا يستهان به من تاريخ الشعر العربى فى الشام والعراق منذ القرن الثانى الهجرى .

هذه هى بأكبر قدر ممكن من الإيجاز قصة وحدة الموضوع التى نراها السمة الأولى فى قصائد ومقطوعات الحب المأساوى فى القرن الأول الهجرى .

ب - اللون الواحد :

ومن هذه السمة نتقل إلى سمة أخرى يراها الدكتور طه حسين لآثار هؤلاء الشعراء ونسمح لأنفسنا أن نرى رأياً مخالفاً فيها ، هى أن البداوة والسداجة جعلت هؤلاء الشعراء الغزليين لوناً واحداً ، فلم تكن لهم شخصيات كهذه الشخصيات التى نجدتها للشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الإمبراطوريتين (١) ، وهو يرى أننا نستطيع أن نستغنى بجميل عن قيس بن ذريح ، أو بقيس بن ذريح عن جميل بل بواحد عن الجميع ، لأنهم طرقتوا موضوعاً واحداً هو الحب وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد ، وكلهم استعمل نفس الألفاظ والمعانى التى كان يستعملها الشعراء من قبل ، فكلهم - فى رأيه - أحب امرأة واحدة أو زعم أنه أحب واحدة ، وكلهم اتخذها مثلاً أعلى للجمال المادى والمعنوى (٢) .

(١) حديث الأريعاء ، مجلد ٢ ص ٢٢٨

(٢) المرجع السابق .

ومع هذا فالواقع يدلنا على أن ألوان هؤلاء الشعراء الغزلين قد تباينت بتباين ظروفهم وشخصياتهم تبايناً شديداً وهو تباين كمي وكيفي ، فقيس بن الملوح وقيس بن ذريح كلاهما حقاً أحب امرأة واحدة ، وكلاهما كان معاصراً للآخر ، وكلاهما عانى الحرمان في حبه ، ولكن شتان بين الرجلين والقضيتين وبين ظروف كل منهما . أما قيس بن ذريح فقد أسعده حظه أن كان أخاً للحسين بن عليّ في الرضاعة فساعده الحسين - كما مر بنا - على أن يتزوج محبوبته لبنى ثم بعد أن طلقها تحت ضغط والديه بعد عشر سنوات من الزواج الهنيء عاد الحسين بن عليّ وبذل مساعيه وجعل زوج لبنى الثاني يطلقها لتعود زوجة لقيس بن ذريح كما تذهب الروايات . وإذن فلم يعان قيس بن ذريح ما عاناه قيس بن الملوح الذي لم يجد معيماً له على الزواج ممن أحب ، وقد خاب مسعى كل من أميرى الصدقات اللذين تعاقبا على بذل الجهد لتزويجه من ليلى كما رأينا ، وشتان بين التاج الشعري الكبير لقيس ليلى وذلك التاج القليل لقيس لبنى بسبب اختلاف ظروفهما ، وأين قيس بن ذريح في شخصيته وظروفه من جميل ؟ فجميل لم يحظ بما حظى به ابن ذريح ، وإنما عاش حياته حتى أدركه المشيب وهو على حبه لبثينة محروماً حرمان قيس من ليلاه ، إلا أن شخصية جميل تختلف أشد الاختلاف عن شخصية القيسين معاً ، فحبه طويل العمر هادئ رزين ، بل فاتر فتوراً ملحوظاً ، إنه حب لا ترى فيه نيران الحرمان الذي أحرق مهجة قيس على ليلاه ، وأحرقت شبابه كله ولا هزة النيران التي التاع بها فؤاد قيس على لبنائه في الفترة القصيرة التي افترق فيها عنها .

وهؤلاء العشاق الثلاثة المختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف يختلفون أيضاً عن الغزلين الآخرين الذين جمعتهم هذه الظاهرة العجيبة الغريبة من موجة الحب المأساوى في بوادى الجزيرة العربية في النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، وهم توبة الحميرى صاحب ليلى الأخيلىة ، والصمة القشيرى ، ووضاح اليمن ، وكثير عزة ؛ فقد أخذ كمُّ هذا الغزل يقل وأخذت حدته تفر

حتى وصلت إلى أقصى درجات الفتور عند كثير عزة الذي أعلن أنه أراح فؤاده من حبها فيما مر بنا ، والذي كان الشاعر الغزلي الوحيد في هذه المجموعة أو هذه الموجة الذي لم يكن الغزل همه الوحيد ، وإنما انخرط انخراطاً كبيراً في السياسة .

لست أرى جميلاً إذن صورة لابن ذريح على الإطلاق ولا واحداً من هؤلاء الشعراء يمكن أن يكون بديلاً عنهم جميعاً ، لأنهم مختلفون أشد الاختلاف في شخصياتهم وظروفهم وأساليبهم الشعرية .

ج - العفة والسمو :

هناك السمة الكبرى التي ألحقت بهذا الغزل صفة العفة والسمو بمقارنته مقارنةً زمنية بالغزل الجاهلي ومقارنة مكانية بالغزل المعاصر له في مكة والمدينة ، فهو بالنسبة لهما معاً غزل شريف عفيف سام طاهر ، وتتركز المقارنة الأولى على امرئ القيس ومغامراته الغرامية المنافية للخلق الفاضل ، وتتركز الثانية على المغامرات الغرامية لعمر بن أبي ربيعة بحيث يبدو عمر وكأنه امتداد طبيعي لامرئ القيس .

والحق أنني لا أرى وجهاً للمقارنة بين هذا الغزل البدوي المأساوي ، حيث الحرمان حتى من المحبوبة الواحدة التي يريد أن يتزوجها من أحبها على سنة الله ورسوله وبين هذا الغزل اللاهى العابث الذي ينتقل فيه الشاعر بين محبوبات كثيرات تنقلاً لا يرضى الخلق الفاضل الكريم .

وحتى لو قبلنا هذه المقارنة الزمانية والمكانية التي تجعل الغزل البدوي في القرن الأول جديراً بصفة العفة والشرف والسمو ، فإن المسألة ليست بهذه البساطة لأنها تحتوي على العديد من العناصر ؛ منها أن هذا الغزل البدوي المعبر عن الحرمان والعذاب في الحب ليس كله تهوياً في آفاق علوية ، بل فيه النظرة المادية إلى المحبوبة ووصفها وصفاً حسياً واضحاً مما ذكرناه في دراستنا لظاهرة هذا الغزل ، بل هو يتناول جسم المحبوبة ولا يتناول أبداً صفاتها

المعنوية من قريب أو بعيد ، إنه لا يعبر إلا عن الحرمان من المتع الجسدية وحدها ، وهذه حقيقة واضحة تماماً فى الغزل البدوى فى هذا العصر أوردنا نماذج كافية منها فى دراستنا للظاهرة نفسها فيما سبق .

هناك عنصر آخر فى هذه المقارنة الزمانية والمكانية هى أن الغزل الجاهلى كله ليس غزل امرىء القيس اللاهى العابت بحيث يجب أن نعيد النظر فيما كرره عميد الأدب العربى فى حديث الأربعاء من أن الجاهليين كانوا يصفون النساء كما يصفون الإبل^(١) ، وأنهم لم يعنوا بذكر الحب وتأثيره فى النفس وأن عواطف الجاهليين كانت تصدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شىء خاصة وأن الدكتور طه حسين قد قرن النابغة إلى امرىء القيس وأدرجه معه فى هذا الحكم^(٢) ، وهو يجمل هذه المقارنة بين هذين النوعين من الغزل بقوله : الغزل فى الجاهلية كان وسيلة وكان مادياً ، وغزل الإسلاميين كان غاية ، ولم يبرأ من المادة لكنه أضاف إلى المادة الحب وما يترك بالقلب والنفس من أثر وعاطفة^(٣) ، وهذان العنصران ينفيان البساطة عن المقارنة السابقة بين غزل البادية فى الإسلام وغزل الحضرة الإسلامى والغزل الجاهلى ، فإذا كان أصحاب الغزل العابت قد نالوا غايتهم - أو هكذا زعموا - فإن أصحاب الغزل من المحرومين قد وصفوا الآلام النفسية الناشئة عن حرمانهم من نيل المتع الحسية المرتبطة بالمحاسن الحسية للمرأة ، هذا هو كل ما فى الأمر ، ومشهور جداً هذا القول الذى ينسب لمجنون ليلى فى سؤاله غير المناسب لزوجها :

(١) حديث الأربعاء : ٢٢٨/٢

(٢) الواقع أن الغزل الحسى الوحيد للنابغة كان فى المتجردة زوج النعمان بن المنذر ، والنعمان نفسه هو الذى أمر النابغة بوصفها ، ثم كان ذلك مسبباً فى تدهور علاقة النابغة بالنعمان . (انظر الأغانى : ١٣/١١ ، الطبعة التونسية) .

(٣) حديث الأربعاء : ٢٢٨/٢

بربك هل ضمنتَ إليك ليلى
قيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رقت عليك قرون ليلى
رفيف الأتحوانة فى نداها (١)

فهما بيتان يضافان إلى النظرة الحسية المادية التى نرى أن شعراء الغزل
المأساوى لم يتعدوها ، وأنه من هذه النظرة الحسية المادية وحدها أتى هذا
الشعر الطبيعى الملتهب بالحرمان فى الحب ، والدكتور طه حسين لا ينفى هذا
الوصف المادى من جانب الغزلين البدويين ، ولكنه يذكر - كما رأينا - أنهم
أضافوا إلى الوصف المادى أثر الحب فى النفس ، وهل كان يمكن إلا أن
يفعلوا ذلك ؟ فهذه الإضافة هى قرين ضرورى طبيعى جداً للحرمان ، أما
الشاعر الذى أحب ونال أو زعم أنه نال مراده حتى من الحب الأثم العاثر ،
فأى ضرورة تدعوه إلى التعبير عن أثر الحب وعذابه وآلامه النفسية ؟

وصحيح أن هؤلاء الغزلين المحرومين أرادوا صلة زوجية لم ينالوها بعكس
هؤلاء الغزلين الراوين الذين نالوا ما أرادوا نيلاً أثماً محرماً أو هكذا زعموا ،
ولكن كلا منهما عبّر تعبيراً طبيعياً عن موقفه . الأول تألم وظل يتألم طيلة
عمره ، والثانى نال مراده وانصرف عن حب إلى غيره ، وكلا الحالين فى
نظرى بائس يدعو إلى الرثاء ، وكلا الموقفين ينم عن فراغ وخواء فكرى
وضيق فى الأفق وانصراف عن عظامم الأمور . وكما أن الثانى يستوجب
الإعراض لأنه مضاد للشرف وللكرامة الإنسانية التى يجب صونها عن هذا
العبث ، فإن الأول يستوجب الإعراض أيضاً لا التمجيد والثناء لأن هذا
التهالك فى حب امرأة والانصراف عن جلائل الأعمال إلى التفكير ليل نهار
وطول العمر فى امرأة أياً كانت ليس عملاً بطولياً ولا هو من جلائل الأمور
وعظائمها ولا هو أيضاً هذا الرقى العظيم (٢) الذى أشار إليه عميد الأدب
العربى ، إنه يذكر أن الغزل فى الجاهلية كان جسم المرأة فأصبح فى الإسلام
نفس العاشق ، ولم تكن المرأة شيئاً يطمع فيه وإنما كانت شطراً من النفس لا

(١) الأغانى : ٢٣/٢

(٢) حديث الأربعاء : ٢٣٠/٢

تطيب للنفس حياة إلا به وهذا فى رأيه رقى عظيم (١) ! ولعلنى أرى أن الرقى العظيم هو شىء أبعد وأكبر من قصر انشغال الفكر بامرأة لا يوفق العاشق فى الزواج بها ، إن الرقى العظيم فكر عظيم وعمل كبير وليس أبداً امرأة تظل هى محور كل شىء مع إقرارنا بأهمية المرأة فى الحياة ، لكنها ليست كل الحياة ولا ينبغى أن تكون كل الحياة .

وقد ذكر الدكتور طه حسين بحق فيما أوردناه أن هؤلاء الشعراء لم يجدوا فى الحياة العملية ما يصرفهم عن أنفسهم إلى هذا الجهاد الخصب المثمر فى العراق والشام (٢) ، فنحن إذن مع الغزليين العابث والمأساوى فى جزيرة العرب فى القرن الهجرى الأول أمام فنين شعريين كانا نتاج الحياة الفارغة من العمل المثمر ، ولهذا فإنهما معاً لا يستحقان الثناء فضلاً عن التمجيد الذى حظى به هذا الغزل المأساوى فى البوادرى . وإن كان هذا لا يعفينا من التناول الفنى الدقيق لنصوص هذا الغزل الأخير دارسين محللين .

د - اليأس والفقر :

والدكتور طه حسين يرى أن الذى بعث هذا الغزل العفيف فى البوادرى ، إنما هو اليأس والفقر ، بينما بعث الغزل العابث الماجن فى حاضرتى الحجاز اليأس والثراء (٣) ، فالإس إذن هو العمل المشترك بين هذين الفنين المختلفين فى اتجاههما فى الجزيرة العربية بعد الإسلام فى بدوها وحضرها ، وهذا اليأس هو يأس من العمل السياسى وغير السياسى ، وحقاً يرى طه حسين أنه لم يكن شعراء الغزل العفيف أو الماجن ينصرفوا إلى هذه الحياة وهذا الفن الشعرى لو وجدوا فى الحياة العملية ما يصرفهم عن أنفسهم إلى هذا الجهاد الخصب المنتج فى العراق والشام (٤) .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١

(٣) المرجع السابق ، مجلد ٢ ص ٢٢٤

(٤) نفس المرجع ، مجلد ٢ ص ٢٢٧

فالفراغ إذن هو العامل الأساسى الأول فى نشأة هذا اللون من الحب والغزل فى بواى الجزيرة وحواضرها بعد الإسلام ، ولكننا مع ذلك لا نرى ربط اليأس بالفقر فى بواى الجزيرة العربية إذ كيف يكون ذلك ، والروايات تذكر أن قيس ليلى كان يلبس حلى الملوك (١) ؟ وبعضها يشير إلى هذا الطيلسان الذى كان يرتديه حين التقى بليلى لأول مرة ، وهذه الناقة الكريمة التى عقرها لهذا المجتمع النسائى الذى رأى فيه محبوبته ؟ وكل الروايات الخاصة به تدل على أنه كان فتى ينعم بثراء والده . وهكذا كان والد قيس لبنى الذى رأينا أن السبب الرئيسى فى رفضه لزواج ابنه عن أحب هو أنه لا يريد أن تذهب ثروته إلى الغرباء . وأين الفقر فى حياة جميل بثينة الذى يذكر أيامه السعيدة الهائلة معها باللوى وبذى الأجر وهو أغيد غض الشباب يعجرُ الرداء مع المتزر (٢) ، فهل هذا حال أناس يعانون الفقر وشظف العيش والبؤس والحرمان ؟ إننى أرى أن غنى هؤلاء الشباب هو الذى هيا لهم هذا الفراغ من العمل ، ومن الحاجة إلى العمل التى لم تترك فراغاً لأسلافهم من شعراء الجاهلية ليفرغوا ليل نهار للحب والغزل وحده ، ويدل ارتباط هؤلاء الشباب بأبائهم على نوع النشأة والتربية التى تلقوها وعلى الاختلاف الشديد بينهم وبين أسلافهم فى الجزيرة العربية ، فما سمعنا أن والد النابغة أو ليلى أو الأعشى أو الحارث بن حلزة أو زهير بن أبى سلمى كان له هذا الدور فى حياة أحد منهم أو والد إحدى المحبوبات اللائى ذكروا فى أشعارهم كان له دور فى هذه العلاقة ، ما سمعنا أبداً عن دور لوالد هريرة أو نعم أو أسماء أو حتى فاطمة التى ذكرها امرؤ القيس فيمن ذكر فى مغامراته العاطفية الماجنة التى كانت سبباً فى غضب والده الملك عليه وطرده له لأنه فعل ما لا ينبغى لأبناء الملوك أن يفعلوا ، وهو الوحيد الذى نرى ذكراً لوالده فى كل من ذكرنا من الشعراء

(١) الأغانى : ١١/٢ ، وانظر : بسط سامع المسامر ص ١٧

(٢) ديوان جميل بثينة ص ٣٦

الجاهليين ، وهذا يدلنا على أن الشعراء الذين وقفوا حياتهم وفنهم كليهما على حب امرأة كانوا فارغين من الانشغال بالخصب والمنتج من الأعمال ، لأنهم كانوا غير محتاجين لتدبير أمور معاشهم ، فهناك الثروة وهناك الآباء الذين تربي أكثرهم فى بحبوحة من ثروتهم ، وهذا ينتج لنا نمطاً معروفاً جيداً من الأبناء ، وهذا النمط نراه واضحاً جلياً فى إمام هؤلاء الشعراء الغزلين وهو قيس ليلى ، وكذلك قيس لبنى وجميل بثينة .

فالدكتور طه حسين لا يريح نفسه بالتسليم بأن هؤلاء الشعراء وما أنتجوه من غزل البادية بعد الإسلام إنما هو أثر من آثار ما طبعه الإسلام فى نفوس أهل البداوة من عفة وسمو وطهارة لأن المسألة أكثر صعوبة وتعقيداً بكثير جداً من هذا التعليل الذى ينسب إلى الإسلام العظيم شخصيات لا همَّ لها ولا عمل إلا التغزل بامرأة هام بها قلب الشاعر وملاحظتها ملاحقة دائمة ، لكننا إذا كنا قد وافقنا على أن الفراغ كان أحدَ الأسباب الهامة فى نشوء هذه الظاهرة وتناميها إلى هذا الحد ، فإن هذا الفراغ لا يمكن أن يرتبط بالفقر هنا ، كما ذهب إلى ذلك طه حسين ، وإنما الذى يرتبط به حقاً هو الثراء الذى أغنى هؤلاء الشباب عن العمل والسعى وراء الرزق ، وفى الروايات الخاصة بهم وجدنا ما يؤيد ما تمتعوا به من ثراء ، فكان اشباب والفراغ والجدة هو المثلث الذى نمت بين أضلاعه هذه الظاهرة فى هذه البيئة بتشجيع واضح كل الوضوح من السياسة الأموية ، وعلى أعلى مستوى وهو مستوى الخلافة نفسها كما مر بنا .

* * *

٢ - الشعراء

والآن جاء دور انتقالنا من الشعر إلى الشعراء أنفسهم لنتبين أهم ملامح أكبرهم ، وهم قيس ليلى ، وجميل بثينة ، ووضاح اليمن ، وكثير عزة ، وعن لهم الكم الأكبر من هذا الشعر والملاحم الأوضح .

١ - قيس ليلى :

يعد غزل قيس ليلى هو الأكبر كماً ، والأعلى كيفاً ، مع أن هذه الشخصية تعرضت لأقوى شك فى وجودها ذاته من قبل طه حسين ، فهو ينكر هذا الوجود إنكاراً قوياً كما رأينا فى القسم الأول من هذه الدراسة .

إن الشعر الجميل الصادق فى نظرى هو ذلك الذى يعود إلى أحضان الطبيعة البكر ، وهانذا أتأمل أشعار قيس ليلى فأرى صور الطبيعة البكر من الريح والسييل والشمس والليل والطير :

تأمل معى قول قيس ليلى :

جـرى السـيل فاستبـكاني السـيل إذ جـرى	وفاضت له من مقلتى غروبُ
وما ذاك إلا حين أيقنتُ أنه	يكون بوادٍ أنت منه قريبُ
أظُلُّ غريبَ الدار فى أرض عامرٍ	ألا كل مهجورٍ هناك غريبُ
وإن الكثيب الفردَ من أيمن الحمى	إلى وإن لم آتته لحيبُ
فلا خير فى الدنيا إذا أنت لم تـزرُ	حبيباً ولم يطرب إليك حبيبُ (١)

فالنغمات الشجية فى أول الأبيات تسمعها وكأنك تسمع عزفاً حزيناً على

(١) الأغاني : ٥٢/٢ ، (التونسية) .

الكمان ، وسر الجمال فيها هو تلك العودة الطبيعية إلى أحضان الطبيعة ، إذ مبعث الأبيات ذلك المنظر الطبيعي البكر فى صورة السيل الذى جرى ماؤه فأجرى دمع هذا العاشق الذى لا شاغل له فى الحياة إلا محبوبته .

وكل ما فى الأبيات من جمال يتركز فى البيتين الأول والثانى منها حيث يقوى اتصال الشاعر بالطبيعة بمائها ويابستها لكنك فى البيت الثالث ترى هذا الحشو فى قوله « هناك » ، وهى كلمة من الواضح تماماً أن الشاعر جاء بها لإقامة الوزن لأن المهجور يشعر بالغرابة فى أى مكان سواء كان هذا المكان هنا أم هناك ! :

أظن غريب الدار فى أرض عامر ألا كل مهجور هناك غريبُ

فالشاعر فى الشطر الأيسر يقيم تعميماً مفاده شعور الإنسان المهجور بالغرابة ولهذا تأتى « هناك » وسط هذا التعميم بما يناقض هذا الحكم العام ولا يشفع لهذه الكلمة - هناك - أنها تحدث انعطافاً من الشق الأيسر نحو الشق الأيمن لأن المتلقى ينشغل بهذا التناقض بين التعميم والتخصيص داخل هذا الشطر الأيسر عن هذه الدورة الدلالية التى تحدثها هذه الكلمة بين شطرى البيت .

أما البيت الرابع فهو بالغ الضعف لأن كل ما فيه هو أن هذا الكتيب الفرد حبيب إليه ، وإن لم يزره ، ولعلك تحس جهد الشاعر فى الوصول إلى قافيته فهذا الكتيب الفرد حبيب إليه ، لكن « حبيب » هذه أو هذا الخبر يبعد كل البعد عن المبتدأ على طول ما بينهما فى الشطر الأيمن والشطر الأيسر من مسافة !

فالشاعر لكى يصل إلى هذا الخبر الذى هو نفسه قافية البيت يصف الكتيب بأنه فرد ويحدد موقفه من أعين الحمى ، ثم يذكر « أنه لم يأت » ، وأخيراً بعد كل هذه المسافة الطويلة يصل إلى خبر مبتدئه ، فنحن أمام تركيب سقيم المعنى ساذج كل السذاجة .

والبيت الأخير يحمل شيئاً من المعنى أفضل من سابقه ، لكن التعبير عنه يضعفه بسبب هذه المقابلة غير الموفقة بين أن تزور الحبيب وبين أن يطرب « إليك » الحبيب ، إذ ما العلاقة بين الزيارة هناك والطرِب هنا ؟

إن الشعر تشكيل لغوى دقيق كل الدقة وما لم يراع الشاعر دقة التناسب بين أجزاء المعانى داخل هذا النسق الموسيقى التقابلى فى الشطرين ، فإن ذلك يصيب البيت بالخلل الدلالى ، صحيح أن طرب الحبيب لن يكون إلا إذا حدث تواصل أو تمت زيارة ، ولكن ذلك يقتضى اعتساف الطريق إلى إحداث هذا التقابل بين جزئيات الدلالة فى فن يتطلب بطبيعته دقة اختيار اللفظ داخل نسيجه قبل كل شيء .

وهيا بنا نحلل الأبيات التالية وفقاً لمنهج الدورة الدلالية الصغرى على هذه الخلفية من العودة إلى الأصل التجسدى متمثلاً فى صور الطبيعة البكر ، وهى أبيات يذكر صاحب الأغانى أن قيساً قالها حين صادف حى ليلى راحلاً فخر مغشياً عليه (١) :

أقول لأصحابى هى الشمس ضوءها قريب ولكن فى تناولها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ على كبدى من طيب أدرانها برُدُ
فما زلت مغشياً علىّ وقد مضت أناءٌ وما عندى جواب ولا ردُّ

ففى البيت الأول شيءٌ من الجمال سببه هذا التناسب العكسى بين قرب ضوء الشمس وبُعدِ تناولها ، وما رأيك فى « تناولها » هنا ؟ إنى أرى أنها مناسبة للموقف ، فالشاعر يريد أن يصل إلى المحبوبة بعيدة المنال . وواضح أن الشاعر كان يخطط من بداية البيت للوصول إلى هذه القافية « بُعد » ليحدث هذا التلاؤم بينها وبين القرب ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً لا بأس به ، وفى البيت التالى ينجح أيضاً فى إقامة الدورة الدلالية بين نفحة الريح وبين

(١) الأغانى : ٥٣/٢ ، (التونسية) .

مذا البرد على كبده فهي ريح حملت طيب أدران المحبوبة ، فكان لها هذا
لوقع الطيب على كبده ، ولكن هل ترى هذا البيت مناسباً في هذا الموقف
لصعب موقف رحيل المحبوبة ووقوع الشاعر مغشياً عليه ؟ وها هي دورة
لدلالة تضعف كثيراً في البيت الأخير من هذه المجموعة بين مضي الأناة
وانعدام الجواب والرد مع هذا الترادف الذي هو مجرد إقامة للوزن وبين
سقوط الشاعر مغشياً عليه ، ولعللى لا أصدق أن قائل هذا البيت الأخير
الضعيف ضعفاً شديداً هو نفسه قائل البيتين الشهيرين التاليين :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شغفنِ قلبى ولكن حُبُّ مَنْ سَكَنَ الديارا

ولا أحد يمكنه أن ينكر الجمال الأخاذ في هذين البيتين ، وهو جمال
نستطيع أن نتلمس أسبابه ومعاله بدقة أكبر ، وعلى أساس أقوى حين نقيسها
بمقياس العمل الشعري نفسه ، أقصد درس الدورة الدلالية داخل كل منهما أو
حركة المعنى عبر قطبيهما ، وهل هناك أروع من هذا « التفصيل » الذى يوحيه
قوله ذا الجدار وذا الجدار ، وكأنه لا يترك مكاناً في هذه الديار إلا قبله ولثمه
حيث تتعطف صورة الجدران فى الشطر الأيسر نحو صورة ديار المحبوبة ، ثم
ينعطف ساكنو الديار فى البيت التالى نحو الديار نفسها مؤكداً أن الشغف هو
بساكنيها وليس بها .

وهيا بنا نتأمل الأبيات التالية لقيس ليلى على خلفية عائدة إلى وحدات
الطبيعة البكر من الليل والطير :

ألا ما لليلى لا ترى عند مضجعى بليلى ولا يجرى بهالك طائرُ
بلى إنَّ عُجْمَ الطيرِ تجرى إذا جَرَتْ بليلى ، ولكن ليس للطيرِ زاجرُ
أملتُ عن العهد الذى كان بيننا بذى الرمث أمُّ قد غيّبتها المقابر

ويذكر صاحب الأغانى أن المجنون كان قد مرض قبل أن يختلط فعاده قومه ونساؤهم ولم تعده ليلى (١) فقال هذه الأبيات .

ونحن نعرض هذه الأبيات الثلاثة على مقياس الدورة الدلالية ، فلا نرى كثيراً مما يلفت النظر فى قوة أو دقة هذه الدورة ، فهذا هو جريان الطائر بليلى وفقاً لاعتقاد التفاؤل والتشاؤم المعروف ينعطف نحو غياب ليلى عند مضجع الشاعر المريض جسماً ونفساً .

وفى البيت التالى نرى زعمه أن عجم الطير تجرى بها بل لا تجرى إلا بها منبئة بوصالها له ، ولكن لا يوجد زاجر لهذا الطير ، وهو معنى يبدو غامضاً بعض الشيء ؛ إذ ما علاقة زجر الطير بجريانها بليلى ؟

ثم يجعل الشاعر ميل ليلى عن عهدا له مكافئاً لموتها فى البيت الأخير ، ويكون هذا التكافؤ بين الحدين مبعثاً لقوة ارتباط الشطرين فى هذا البيت الأخير ، لكنك توافقنى بلا شك على أننا أمام معان بسيطة بل ساذجة كل الساذجة لكنها متمشية بطبيعة الحال مع هذه العقلية البسيطة التى لا تستند إلى ثقافة ولا علم .

على أن ما يلفتنا حقاً فى الصنعة الفنية عند قيس ليلى ، ولا نرى أحداً من هؤلاء الغزلين ارتفع إلى مستواه هو صدق التشبيهات وروعيتها ، وللتشبيه فى الشعر - وهو أساس الاستعارة - مكانته المحورية بالغة الأهمية حتى منذ أيام مصر القديمة ، فأعظم الأشعار التى وردت إلينا من هذه العهود السحيقة تستند قيمتها الحقيقية إلى فن التشبيه ، ويستطيع المرء أن يتبين القيمة الكبرى للتشبيه بالرجوع إلى هذه الآثار الأدبية الرائعة ليرى مكان التشبيه منها وخاصة شكاوى الفلاح الفصيح (٢) التى تضم صوراً رائعة من التشبيهات الدقيقة البارعة ، وها هو أرسطو يجعل للاستعارة - التى هى فى جوهرها تشبيه -

(١) الأغانى : ٥٩ / ٢ ، طبعة تونس .

(٢) سليم حسن : الأدب المصرى القديم : ٦٤ / ٢

مكانة عليا في كتابه « فن الشعر » (١) ، ونحن واجدون عند مجنون ليلى تشبيهات بالغة الجمال مثل قوله :

لقد ثبت في القلب منك محبة كما ثبتت في الراحتين الأصابع^٢

لقد بحث الشاعر عن صورة يرسم بها ثبات محبة ليلى في قلبه ويرضى في نفس الوقت مقتضيات النغم الشعري ، فكان توفيقه إلى هذه الصورة التي تستمد روعتها من دقتها ، وهل هناك أدلّ على الثبات من ثبات الأصابع في راحة اليد ؟

ثم تأمل معي هذه الصورة الجميلة الأخرى عند قيس ليلى :

كأنى إذا لم ألق ليلى معلق بسين أهفو بين سهلٍ وحالق^٣ .

وهو تعبير بالصورة المحسوسة عن هذه الحالة النفسية التي تعتربه حين لا يلتقى بمحبوبته ، إنه حينئذٍ معلق بحبلين بين سهلٍ وحالقٍ أو هكذا يشعر ، وقد حبا هذه الصورة بعداً حركياً بقوله « أهفو » ، وبذلك حقق الشاعر أهم مفهوم لفن الشعر وهو تحويل المجرد إلى صورة تجسده تجسيداً بالغ الدقة والروعة والجمال لأنه رسم في أذهاننا بهذه الألفاظ هذه الصورة الدقيقة لحالته النفسية .

ثم تأمل معي أيضاً هذا التشبيه البارع :

يضم على الليل أطرافُ حبكم كما ضمَّ أطرافَ القميصِ البنائِقُ^٤

فهذا التشبيه يبدو فريداً متميزاً كسابقه ، فالليل يحبك أطراف حب ليلى على جسمه ، كما تحبك أطراف القميص هذه البنائِق ، وفي مثل هذا التشبيه

(١) شكرى عياد : كتاب أرسططاليس في الشعر ص ١٢٨

(٢) الأغاني : الأصفهاني : ٣٨/٢

(٣) الأصفهاني : الأغاني : ٥٠/٢

(٤) المرجع السابق .

يتحقق جوهر الفن الشعري بهذه الصورة المحسوسة التي ترسمها الألفاظ في ذهن السامع بكل هذه الدقة والبراعة محولة المجرد إلى مجسّد ، وبهذا تتحقق نظرية التخيل^(١) التي تعدّ أصدق وصف للشعر العربي ، ولكل شعر ذاتي يتكىء على نغمه ودلالته الذاتية التي تنهض بها الألفاظ .

ولعلّ لا أستطيع أن أنتقل معك من قيس ليلى إلى غيره من شعراء هذه الموجة العجيبة من هذا اللون الأحادي المأساوي من الحب في بوادي جزيرة العرب قبل أن نستمتع إلى هذه الأنغام الشجية من شعر قيس ، ومع أننى قد حملت على هذا اللون من الحب الذى هو انصراف غير محمود عن جلائل الأمور فى الحياة ، إلا أننى حين أقف عند النص الشعري الجميل جمالاً فنياً رائعاً أنسى موقفى هذا لأتأمل الجمال المحض فى النص ، ولا أشك فى أن سبب هذا أننى أجد فى النص الذى سنستمع إليه معاً هذه العودة الساحرة الأسرة إلى أحضان الطبيعة البكر تلك التى اعتبرها حقيقة الحقائق فى فن الشعر ، فالشعر عندى بل الفنون كلها عودة إلى الأصل ممثلة فى الطبيعة البكر والتفكير البكر ، وهأنذا أرى قيساً يندمج ويتوحد مع الطبيعة فى هذا العشق الذى خلده الأبيات التالية وأمثالها :

أيا ليل زندُ البين يقدح فى صدرى	ونارُ الأسى ترمى فؤادى بالجمسِرِ
أبى حدثان الدهر إلا تشتتاً	وأى هوى يبقى على حادث الدهرِ
تعزّ فإن الدهر يجرح فى الصفا	ويقدح بالعصرين فى الجبل الوعرِ
فوالله ما أنساك ما هبت الصبا	وما ناحت الأطيّار فى وضّح الفجرِ
وما نظقت بالليل سارية القطا	وما صدحت فى الصبح غادية الكدرِ
وما لاح نجم فى السماء وما بكت	مطوّقة شجوراً على فنن السدرِ
وما طلعت شمس لدى كلّ شارق	وما هطلت عيني على وضّح النحرِ
وما أغطوطش الغريب واسودّ لونه	وما مرّ طول الدهر ذكرُك فى صدرى

(١) انظر : مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب : ١١٧/١ وما بعدها .

وما حملت أنثى وما خبّ ذعلبٌ وما طفح الأذى فسى لجج البحرِ
وما زحفت تحت الرحال بركبها قِلاصٌ تؤمُّ البيت في البلد القفرِ
فلا تحسبى يا ليل أنسى نسيّتكم وإن لست منى حيث كنت على ذكرٍ (١)

فها هو شاعرنا على عادة الشعراء جميعاً يعمد إلى تجسيد المجرد راجعاً بنا إلى طفولة الفكر ، وإذا بنا نرى الفراق والحزن زناداً وناراً لها جمرها المحرق ، وإذا بالدهر يبدو كائناً مادياً محسوساً فاعلاً يعرج ويقدح فى الصخر ، ثم يجسد الشاعر استمرار حبه ودوامه بهذه الاستمرارية فى ظواهر الحياة والكون كأنما أصبح هواه جزءاً لا يتجزأ من ظواهر الطبيعة ذاتها ؛ إنه يقرن هذا الحب بهبوب الصبا ونواح الطيور فى الفجر ، وصوت القطا بالليل وغناء الكدر فى الصبح ، وظهور النجوم فى السماء ، وبكاء الحمامة على الغصون ، وطلوع الشمس ، واستمرار توالد الأحياء وحركة الموج فى البحر ، واستمرار قصد الناس للبيت العتيق . وهذه الاستمرارية تجسّد الزمان نفسه فى شكل هذه الأفعال المتكررة فى الوجود التى تختلف فى المظهر ، لكن لها جوهرأ واحداً هو الدوام الذى يريده الشاعر لحبه ، فهو يمس وجداننا فى أكثر من موضع بهذه الصور المحسوسة لما هو مجرد كالزمان ودوامه ، وهو يضع حياة الإنسان المحدودة إزاء هذه الظواهر الخالدة جاعلاً من هذه الحياة القصيرة المحدودة والمحدّدة أو المعينة ظاهرة دائمة من ظواهر هذا الكون .

إنه يريد أن يجعل المحدود لا محدوداً والفردى عاماً ، يريد تحويل الفناء الفردى إلى وجود أزلى ، ولأن هذه هى مشكلة الإنسان الأزلية فهو يحرك فى داخلنا المشاعر العميقة الكامنة ، وأمام مثل هذا النص القوى الرائع أجدنى أتوقف إزاء الشك فى وجود شاعر مثل قيس بن الملوّح ، فهل يكون هذا النص وغيره مما مر بنا من شعر قيس مجرد أشعار نظمها راوٍ أو عدة رواة لا

(١) أبو بكر الوالى : ديوان مجنون ليلي ص ٦

أكثر ، إنى لا أستريح مطلقاً لهذا الفرض إزاء هذا الشعر القوى الرائع
الصادق ، بل لا أستطيع أن أسلم بسهولة برواية صاحب الأغاني بأن قائل هذا
الشعر هو أحد أمراء البيت الأموى (١) ، وقد عشق ابنة عمه ولم يتزوجها .
إن هذا الشعر الجميل الذى مرّ بنا لا يمكن إلا أن يكون صادقاً ، وإلا أن
يكون نابعاً من البادية لا من قصور الأمراء .

٢ - جميل بثينة :

ولعلنا وقفنا بهذه النماذج السابقة وقفة كافية عند شعر قيس ليلى تكشف لنا
عن أهم جوانب الصنعة الفنية عنده ، ولنتقل الآن إلى شاعر آخر من شعراء
هذه الموجة من الغزل التى استمرت نصف قرن من الزمان ، وهو جميل بثينة .

وحب جميل كما ذكرتُ فى القسم الأول من هذا البحث حب طويل
العمر استغرق حياته كلها حتى المشيب ، وهو حبٌ هادىء إلى درجة الفتور
كما يكشف عنه شعر جميل إذا قسناه بحب قيس ليلى الحاد العنيف عنفاً
شديداً . حبٌ جميل أشبه بتيار ماء لا أقول يجرى بل أقول يتلكأ أحياناً ،
ولنقف عند أبياته الشهيرة التالية :

أبثين إنك قد ملكت فاسجحى	وخذى بحظك من كريم واصلِ
فلربَّ عارضةٍ علينا وصلِّها	بالجدِّ تخلطه بقولِ الهازلِ
فأجبتها فى القول بعد تسرِّ	حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى صدرى كقدر قلامه	فضلاً وصلُّك أو أتك رسائلى !
ويقلن إنك قد رضيت بباطلِ	فيها فهل لك فى اجتناب الباطلِ
صادت فؤادى يا بثين حبالكم	يوم الحجون وأخطأتك حباللى
وتثاقلت لما رأت كلفى بها	أحببُ إلى بذاك من مثاقلِ
وأطعت فى عواذلاً فهجرتنى	وعصيتُ فىك - وقد جهدن - عواذلى (١)

(١) الأغاني : ٨ / ١٠٠ - ١٠١ (التونسية) .

ولعلك توافقني على أن هذه الأبيات تكشف عن حياة فارغة لاهية وإن لم تَخُلُ من مغامرات عابثة ، كما ورد في أخبار جميل في كتاب « الأغانى » مما مر بنا ؛ إنها حياة شباب فارغ الحياة والفكر إلا من مجالسة النساء والتحدث إليهن والانشغال بهن ليله ونهاره .

أرأيتَ إلى هذا الشباب الفارغ في هذا المجتمع الذى لا يشغله إلا هذه الأمور من حب هذه وعرض هذه وصالها عليه واعتذاره لها بأنه يحب غيرها ولولا ذلك ، بل لو أن هنالك موضع قلامة في صدره لو أصلها أو لكاتبها ؟ أهذه معان يسجلها هذا الفن الراقى فن الشعر ويسجل هذه الحياة التافهة الفارغة لهذا الشباب العاطل الذى يُدعى إلى الجد والعمل المثمر فيصرح تصريحاً لا موارد فيه بأن النساء هن جهاده وكل عمله ، وأنه مكف بجهادهن الذى يحظى فيه صاحبه بالشهادة كما سبق أن رأينا ، ومن عجيب أن مثل هذا الشعر وهذه الحياة الفارغة اللاهية تحظى بالتقدير والإعجاب على مر العصور ، ويذكر الدكتور طه حسين أن جميلاً يترك في هذه الأبيات المادة إلى المعنى ، ويتناول الصلة بين العاشقين فى رقة ونظف وحنان ، ما كان ليلنفا قلب كقلب امرئ القيس (١) ، وذلك فى قوله :

وكان طارقها على عسل الكرى	والنجم وهناً قد دنا لتغورِ
يستاف ریح مدامة معجونةِ	بذكرى مسك أو سحيق العنبرِ
إنى لأحفظ عهدكم ويسرنى	إذ تُذكرين بصالح أن تُذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لك مرسلأ	أو نلتقى فيه على كأشهرِ
يا ليتنى ألقى المنية بغتة	إن كان يوم لقائكم لم يُقدرِ
أو قد تجن كما أجن من الهوى	لعذرت أو لظلمت إن لم تعذرى
والله ما للقلب من علم بها	غير الظنون وغير قول المخبرِ

(١) حديث الأربعاء : ٢ / ٢٣٠

وإذا ذهبنا نتأمل التركيب الدقيق لمعاني وألفاظ هذه الأبيات وجدنا في البيت الأول ذلك العمق الذي يستمدّه من وحدات الطبيعة بنجمها المتغور في هذه الساعة من الليل ، لكننا في النصف الأيسر من البيت الثاني نرى الشاعر قد أهمل استقامة الأسلوب بعطفه معرفاً هو سحيق العنبر على منكرأ هو « ذكى مسك » ، وكان يمكنه أن يتجنب هذا المأخذ غير بقوله :

يستاف ریح مدامة معجونةٍ بذكى مسك أو بطيب عنبرٍ

فالشعر أولاً وأخيراً تركيب وتشكيل لغوى ، وهو أولى فنون الأدب بمراعاة الدقائق اللغوية لأنه ألصق هذه الفنون بخصائص اللغة التي ينتمى إليها ، ولهذا لا تغتفر مثل هذه الدقائق للشاعر ، ولعلك توافقنى على أن المعنى نفسه قد استقام بهذا التعديل البسيط فأنا لا أعطف مسكاً زكياً على عنبر مسحوق مجرد سحق ، بل لا بد أن يكون للعنبر وصف « يزكيه » كما زكينا المسك في تركيب هذا الشطر ، وكم أتمنى أن تتجه الدراسات الأدبية أكثر وأكثر إلى التحليل النصي الدقيق ، لأن النص هو أولاً وأخيراً محور عملنا .

ونأتى إلى البيت التالى ، فنرى الشاعر يعطف الذكر الصالح لبثينة في آخر البيت على حفظه لعهودها في أوله ، فهو يربط سمعتها الطيبة بحفظه لعهداها ، ونحن نفهم العلاقة بين الأمرين في ضوء ما أشرنا إليه سلفاً من أن بعض الشبهات كانت تمحوم حول براءة لقاء الشاعر بها (١) وأنه أكد تأكيداً قاطعاً هذه البراءة ، أى أننا لا نفهم العلاقة بين الأمرين ، وبالتالي لا نرى دورة الدلالة بينهما إلا في ضوء هذه المعرفة السابقة .

ثم نأتى إلى هذه المعانى العادية في الأبيات التالية ، وهى أن يوماً لا يراها فيه أو ترسل إليه رسولها يكون كأشهرٍ عليه ، والموت عنده أفضل من الحرمان من لقائها طول الحياة ، ولو جنت المحبوبة كما جنَّ هو من هواها لعذرتة ،

(١) انظر الأغاني : ١١٤/٨ - ١١٥

ولكن لا أدري معنى إكماله لهذا البيت قبل الأخير بقوله : أو لظلمت إن لم تعذرى ، ولعلى أتساءل ما وجه الاختيار هنا بين أن تعذر وأن تظلم لأنها إذا لم تعذره فإنها تظلمه بلا شك ؟ ألا ترى معنى أننا أمام معان بسيطة ساذجة ساذجة مفرطة ؟ ولا شك أن ما كان عليه هؤلاء الشعراء من ضحالة الفكر أو من جهل ، كما يذكر طه حسين وهو يقارن بينهم وبين شعراء ما بين الإمبراطوريتين فى فرنسا (١) ، أقول لا شك أن ذلك هو سبب هذه الساذجة المفرطة التى نراها فى هذه المعانى :

ولعلنا نرى مصداق ذلك فى مثل قول جميل :

فما لكِ لما خيّر الناس أنسى غدرت بظهر الغيب لم تسلينى
فأحلف بتا أو أجيء بشاهدٍ من الناس عدلٍ أنهم ظلمونى (٢)

فهذا تناول غاية فى الساذجة للمعانى ، وهو يُذَكِّرنا بما سبق أن مررنا به من أن إحداهن عرضت عليه وصلها فأخبرها أن لو كان حبُّ بثينة قد ترك فى صدره موضعاً كقلامة الظفر لواصلها أو لآنتها رسائله !!

إنها لعاطفة فاترة كل الفتور تلك التى تعبر عنها هذه المعانى ، ويبدو لى أن موجة هذا اللون من الحب فى بوادى جزيرة العرب قد بدأت عنيفة كل العنف فى قيس بن الملوح ، وها هى تأخذ فى الانحدار ، وهو انحدار سنرى نهايته حقاً فى كثير عزة الذى كان راوية لجميل نفسه .

٣ - وضاح اليمن :

لا شك أن الذى ألحق هذا الشاب الجميل بالعشاق العذريين أنه أحب روضة الكندية التى مُنِعَ منعاً من الزواج بها فزاد حبه اشتعالاً وشبَّبَ بها فى شعره كما هى سيرة غيره من شعراء هذه الموجة من الغزل ، وشاء القدر أن

(١) حديث الأربعاء : ١٤٧/٢

(٢) الأغانى « التونسية » : ١٧٨/١٩

تصاب روضة بالجذام ، وتُلْقَى مع المجذومين ولا يسمع لها بعد ذلك خبر (١) ، ويقع وضاح اليمن فى حب إحدى أميرات البيت الأموى فى المدينة ، وتقع هى أيضاً فى حبه وتُحجِب عنه هذه الأميرة ، ثم يشاء حظه العاثر أن تحمل من المدينة إلى دمشق لتتزوج ابن عمها الوليد بن عبد الملك نفسه ، لكن الحب بين الأميرة والشاعر يستمر قوياً لدرجة أن تستمر العلاقة بينهما بعد هذا الزواج ، ويقال إن أم البنين كانت تخبئه فى صندوق كبير إذا وقع محذور ، وتنتهى حياة هذا الشاعر بأن يلقى الوليدُ الصندوقَ فى بئر قطعاً لدابر الإشاعات (٢) .

وللوضاح أشعار فى روضة ، وأخرى فى أم البنين ، إلا أن الملاحظ أنها جميعاً أشعار ضعيفة غاية الضعف من الوجهة الفنية ، ومع هذا استمر الاهتمام بشعر الوضاح قوياً ، فلتأمل قوله :

طرب الفؤادُ لِطَيْفِ روضة غاشى	والقوم بين أباطحٍ وغشاشِ
إنى اهتديتُ ودون أرضكٍ سبباً	قفرٌ وحزنٌ فى دجى ورشاشِ
قالت تكاليف المحب كلفتها	إن المحب إذا أخيف لماشى
إذ عدل روضة رحب واسمك غيره	شغفاً وأخشى أن يشى بك واشِ
قالت فزرننا ، قلت كيف أزوركم	وأنا امرؤٌ لخروج سرِّكٍ خاشِ
قالت : فكن لعمومتى سلماً معاً	والطف لإخوتى الذين تماشى
فتزورنا معهم زيارة آمن	والسرى وضاح ليس بفاشِ

فهل ترى فى مثل هذا الكلام ما يستحق مجرد الوقوف عنده ؟ ومع هذا فدعنا نقرأ الأبيات التالية التى تجرى مجرى الأبيات السابقة فى إيراد الحوار بين الشاعر ومحبوبته :

(١) الأغانى : ٢١٣/٦

(٢) الإعلام : ١١٤/٩

يا روض جيرانكم الباكر	فالقلب لا لاه ولا صابر
قالت ألا تلجئن دارنا	إن أبانا رجل غائر
قلت فإني طالب غيرة	منه وسيبقى صارم باتر
قالت فإن القصير من دوننا	قلت فإني فوقه ظاهر
قالت فإن البحر من دوننا	قلت فإني سابح ماهر
قالت فحولى أخوة سبعة	قلت فإني غالب قاهر
قالت : فليث رابض بيننا	قلت فإني أسد عاقر

فما رأيك فى هذا الضعف وهذه الركافة ، بل فى مثل هذا الخطأ اللغوى فى قوله غائر ، وهو يعنى الغيور أو الغيران ؟ وما رأيك فى هذا التعبير العامى الهابط فى قصيدته الشينية ، إن المحب إذا أخيف لماشى ؟ وماشى هنا معناها ذاهب إلى غير عودة ؟

ولوضاح اليمن غزل فى أم البنين لا يرتفع إلا قليلاً عن هذا المستوى السابق هو قوله :

حَتَّامُ نَكْتَمُ حَبِّكُمْ حَتَّامًا	وعلام نستبقى الدموع علاماً ؟
إن الذى بى قد تفاقم واعتلى	وغما وزاد وأورث الأسقاما
قد أصبحت أم البنين مريضة	نخشى ونشفق أن يكون حماما
يا رب أمتعنى بطول بقائها	واحبر ^(١) بها الأرمال والأيتاما

فالشاعر يبدأ بداية قوية بعض الشيء لكن طاقته لا تلبث أن تضعف وتستنفذ فى عطفه غير المناسب « لاعتلى » على « تفاقم » ، فما معنى أن حبه قد اعتلى ؟ إنه يقصد بلا شك أنه زاد فلم يجد إلا هذا الاعتلاء ، ثم تأمل كيف يعبر بهذه السذاجة المفرطة عن خوفه من أن تموت مريضته ؟ :

(١) الخطأ النحوى هنا واضح فى : واحبر !

قد أصبحت أم البنين مريضة نخشى ونشفق أن يكون حماما

ومقدار الحذف فى الشطر الأيسر كبير فى قوله (أن يكون حماماً) ، لأن المحذوف هو (أن يكون هذا الذى بها مؤدياً لحمامها) ، ومع هذا فهو يشغل نفس الشطر بحشو لا جدوى منه على الإطلاق فى قوله نخشى ونشفق ، فهو غير قادر على الإحساس بما يستبقى وما يحذف ليستقيم المعنى ، هذا من ناحية الصياغة ، أما من ناحية الموقف المعبر عنه مما وقع خارج الصياغة فإنه لا يليق أن يعبر عائد المريض عن خشيته أن يتوفى فنحن لسنا أمام شاعر قاصرة أدواته عن التعبير بل أمام إنسان لا يحسن التصرف فى المواقف الاجتماعية ، وقد لا نتفق مع طه حسين على الشك فى وجود هذا الشاعر (١) بسبب اختلاف الروايات حوله لأن اختلاف الروايات وحده ليس دليلاً على انتفاء الوجود ، ولكننا نتفق معه فى أن شعر الوضاح مسرف فى اللين ، سهل مفرط فى السهولة ، بل هو فى رأيه شعر مخنث ، ثم هو على لينة وخنوثة لا يخلو من تكلف آخر فى القافية لم يكن يذهب إليه الشعراء الأولون ، ووضاح يتكلف قافية شينية ويريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليه لأنه مفلس ويريد أن يظهر بمظهر الموسر (٢) ، وهو يشير بذلك إلى قصيدته التى أوردناها منذ قليل والتى مطلعها :

طرب الفؤادُ لطيف روضة غاشٍ والقومُ بين أباطحٍ وخشاشٍ

لقد بدأت فورة الغزل العذرى بقيس ليلي قوية حادة ، ثم أخذت تضعف رويداً رويداً عند جميل ، وهى تواصل ضعفها إلى هذه الدرجة التى رأيناها فى شعر وضاح اليمن لنراها تقوى بعض القوة فى غزل كثير عزة الذى لم يفرغ تماماً لشعر الغزل لأن السياسة ومذاهبها قد تنازعت ، وبكثير عزة تنتهى هذه الموجة الطارئة من الغزل العذرى فى أيام بنى أمية .

(١) طه حسين : حديث الأربعاء : ٢٣٧/٢

(٢) المرجع السابق : ٢٣٩/٢

٤ - كثير عزة :

مع أن كثيراً لم يفرغ تماماً للغزل كما ذكرنا إلا أن في شعره هذا التوحد الجميل مع الطبيعة البكر الذي أراه إحدى آيات العمق والصدق في الفن الشعري ، باعتبار أن هذا الفن نفسه عودة إلى الأصل في تركيب وحداته الصغرى ، في الأبيات ، وفي الفن ككل . ومن أجمل أمثلة هذا التوحد مع الطبيعة قول كثير :

أشاقك برق آخر الليل واصبُ تضمّنه فرش الجبا فالمشاربُ
كما أومضت بالعين ثم تبسمت خريعٌ بدا منها جيبنٌ وحاجبُ
وهبتُ لليلى ماءً ونباتَه كما كل ذى ودٍ لمن ودّ واهب (١)

فعلى مستوى العودة الصغرى داخل كل وحدة صغرى أو بيت هناك هذا الانعطاف من الأرض ممثلة في هذين المكانين العزيزين لدى الشاعر نحو السماء التي التمع فيها هذا البرق آخر الليل .

وتأمل معنى كلمة (تضمّنه) التي تحمل معنى الصلة الحميمة بين الأرض والسماء وكأن هذا البرق قد أصبح حدثاً أرضياً ، لا . . بل أن الأرض والسماء هنا أصبحتا كلاً واحداً في نفس هذا الشاعر الذي شاقه هذا البرق في هذه الساعة المتأخرة من الليل وهو يشوق شاعرنا لأنه يُذكِّره على سبيل التشابه - بوميض عين الحسناء وبسمتها . هذه العين التي ينعطف نحوها من الشطر الأيسر في البيت التالي ما بدا من الحسناء من جيبن وحاجب . . إن ومضة هذه العين الساحرة أشبه بومضة البرق ، وهذا الشبه هو محور الفن الشعري بل محور الأدب كله ، فإذا كان أرسطو قد اعتبر المحاكاة محور الفن الشعري اليوناني والاستعارة وهي تشبيه في أصلها أعلى ما في أقوال هذا الفن (٢) فإن

(١) الأغاني : ١٢ / ١٨٤

(٢) د . عياد : كتاب أرسطوطاليس في الشعر : ص ١٢٨

التشبيه هو محور العمل الشعري عن العرب ، وكل من هذه الأشياء هي شيء واحد في الحقيقة - المحاكاة والتشبيه والاستعارة - لأنها سعىُ الأدب إلى رؤية الوحدة في تنوع الأشياء في هذا العالم وهو سعى يُريحنا ويسرُّنا كما أنّ بحث العلم عن هذه الوحدة شيء يفيدنا ويجعل حياتنا أيسر وأفضل ؛ فأحدهما يحقق لنا بهذا السعى إلى إدراك الوحدة في الأشياء الفائدة المادية ، والآخر يحقق لنا المتعة الروحية والمعنوية ، ولأن الوحدة في الوجود هي الحقيقة الكبرى بل هي حقيقة الحقائق كلها ، فإنها تكون عملاً من أعمال العودة إلى الأصل ، ويكون التشبيه الذي نراه في مثل هذه الأبيات أحد نماذج هذه العودة إلى الأصل ، وتكون المحاكاة التي رآها المترجمون العرب تشبيهاً ، وذلك منذ متى بن يونس . . تكون مجرد وسيلة إلى تحقيق هذا الهدف الأكبر والأبعد لفن الشعر ومعه كل الفنون الجميلة ، وهو العودة إلى الأصل والتوحد مع هذا الأصل .

لقد أطلت الوقوف حقاً أمام هذا التشبيه في البيت الثاني من أبيات كثير لأنى وجدت فيه من الرقة والجمال ما فتح لى باباً للتأكيد على ما أؤمن به الآن من فكرة العودة إلى الأصل . . إلى الطبيعة البكر والتواصل بل التوحد معها باعتبارها جوهر الفن . ولكن ذلك يجب ألا ينسينا البيت الثالث في هذه المجموعة من الأبيات لكثير عزة وهو قوله :

وهبت لليلى مائه ونباته
كما كلُّ ذى ودٍ لمن ودّ واهب

أما العودة الصغرى من آخر البيت نحو أوله فواضحة في كلمات الشاعر في الشطر الأيسر من البيت ؛ إذ يكتب هذا الشطر وعينه على أول البيت ، فهو يهب لليل مائه ونباته كما يهب المحب للمحجوب ، لكن وراء هذه العودة الصغرى ومعها أيضاً عودة كبرى أكبر وأعظم وأهم هي عودة الشاعر إلى هذه الوحدة الطبيعية الكبرى . . الليل وتواصله معها ، فإذا كان برق هذا الليل قد حرك الشوق في نفسه للمحجوبة التي يشبه وميضُ عينها وميضُ هذا

(١) انظر د . عياد : كتاب أرسطوطاليس في الشعر .

البرق ، فإنه اعترافاً بجميل هذا الليل يهبه ماءه ونباته ، وما معنى أن يهب الليل ماءه ونباته ؟

إنه معنى لا أراه عميقاً أو جميلاً أو بديعاً فحسب إنما هو معنى خطير ! نعم هو كذلك ، ولا أذكر أنني صادفت معنى مثله فى كل ما أعرف من الشعر ، لقد أراد أن يردَّ الجميل إلى الليل فماذا يفعل ؟ إنه يهب الليل ما يملكه الليل نفسه من سر الحياة وأصلها فى الماء والنبات ، وواضح أن الشاعر كان بصره يقع على الماء والنبات ، وهو يكتب هذه الأبيات ، ثم هناك ناحية أخرى تؤكد تحقق جوهر الفن الشعري هنا ، وهو أن الشاعر يعتمد عمداً إلى المحسوسات ، فهو يهب الليل ما يرى ويلمس ويحس من نبات وماء ، وكان يمكن أن يقول على سبيل المثال :

وهبتُ لهذا الليل روحى ومهجتى كما كلُّ ذى ودٍّ لمن ودَّ واهبُ

كان يمكن أن يقول مثل هذا الكلام المجرد ، لكن أصالة الشاعر هدته إلى التعامل مع المحسوسات لأنها جوهر الفن الشعري ، وهو ما أدركه الفارابى أول من فلسف الشعر العربى ووضع له نظريته المسماة بالتخييل^(١) ، وهو يتعامل مع المحسوسات ليس كما اتفق ، وإنما هو يختار هذه الصورة المحسوسة اختياراً موفقاً ؛ إنه يجعل الليل كائناً حياً ، وبذلك يجسد الزمان ، ثم هو يهب هذا الزمان المجسد شيئاً محسوساً ملموساً ، وهو لا يهبه شيئاً من عنده بل هو يهب الليل ما يملكه الليل نفسه وهذا هو مكنى العمق بل الخطورة فى هذا الكلام « وهبتُ لليلى ماءه ونباته » ، وهو بذلك يضطرنا إلى أن نفكر فى هذا المعنى ، وأن يذهب فكرنا بعيداً لعل وراءه فلسفة ما ، يضطرنا إلى أن نفكر فى سبب اختياره للماء والنبات بالذات مع أن الليل يضم أشياء كثيرة جداً غيرهما ، لكنهما سر الحياة وبدايتها ، وهيا بنا نتأمل الأبيات التالية لكثير أيضاً :

(١) أرسطو : فن الشعر ، ترجمة د . بدرى ص ١٥٠ وما بعدها .

لعزة أطلالٌ أبست أن تكلمنا تهيج معانيها الفؤاد المتيمًا
وكنتُ إذا ما جئتُ أجللن مجلسي وأظهرن مني هيبَةً لا تجهُمَا
يحاذرن مني غيرَةً قد عرفتها قديمًا فما يضحكن إلا تبسما (١)

فها هو الجماد يتحول على يد الشاعر إلى حيّ يأبى الكلام ويهيج الفؤاد المتيم ، ويجلّ مجلس الشاعر ويظهر الهيبة ، ولا يظهر التجهم ، وها هي أطلال عزة تتجاوز هذا إلى معرفة غيرة الشاعر على محبوبته ، فهي تحذر منه هذه الغيرة ، وهي إن ضحكت فلا يجاوز ضحكها الابتسام ، والشاعر هنا يرتدُّ إلى الطفولة . . طفولة الفكر البشري التي من أخص خصائصها إسباغ الصفات الحية على الجماد ، ومعلومٌ أنه حينما يصطدم الطفل بمنضدة مثلاً ، فإننا نعامل المنضدة أمامه كما لو كانت كائناً حياً يُحسُّ ويفهم ويعاقب على فعلته ، ونحن بذلك إنما نكرر تاريخ الفكر البشري الذي كان يرى للجماد روحاً مما تحفل به الأساطير القديمة عند جميع الشعوب .

الشاعر هنا طفل حقاً ، وهو يرضينا لأنه يحرك الطفل الكامن في نفوسنا جميعاً ، والذي نحفظ بالبراءة الحلوة بمقدار احتفاظنا به في داخلنا .

وتخرج عزة إلى مصر ، وإذا بكثير يعود إلى التوحد مع الطبيعة ممثلة في السحاب المتجه إلى مصر ، إنه لا يحولُ بصره عن هذه السحابة التي تمضي إلى حيث مضت المحبوبة :

ولست براءٍ نحو مصر سحابةً وإن بعدتُ إلا قعدتُ أشيم
فقد يوجد النكس الدنى عن الهوى عزوفاً ، ويصبو المرء وهو كريمٌ
وقال خليلي ما لها إذ لقيتها غداة الشبا فيها عليك وجومٌ
فقلت له إن المودة بيننا على غير فحشٍ والصفاء قديمٌ

(١) الأغانى : ١٢ / ١٨٧ ، طبعة تونس .

وانى وإن أعرضتُ عنها تجلداً	على العهد فيما بيننا لمقيمٌ
وإنَّ زماناً فرَّقَ الدهر بيننا	وبينكم فى صرفه لمشومٌ
أفى الحق هذا أن قلبك سالمٌ	صحيح وقلبي فى هواك سقيمٌ
وأنَّ بجسمى منك داءٌ مخامراً	وجسمك موفورٌ عليك سليمٌ
لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى	ولكننى ياعزٌّ عنك حلیمٌ
فإما ترينى اليوم أبدى جلادةً	فإنى لعمرى تحت ذاك كليمٌ
ولستُ ابنة الضميرى منك بناقم	ذنوب العدا إنى إذا لظلومٌ
وانى لذرٍ وجدٍ إذا عاد وصلُّها	وانى على ربى إذا لكريمٌ (١)

وبمقدار إعجابنا بالأبيات السابقة التى أوردناها لكثير ، فإننا نراه بعد البيت الأول فى هذه القصيدة ينزل كثيراً عن مستواه الرفيع السابق ، صحيح أن فى الأبيات سمة حزن وأسى وصدق غير خافية ، ولكن صحيح أيضاً أن هناك معان عادية مكررة لم يحاول الشاعر أن يهبها شيئاً من العمق ، والسبب فى ذلك أنه ابتعد عن الأصل أو عن المنبع الثر للشعر الموحى الجميل نبع الطبيعة واتجه إلى الناس من حوله ، فمن سائل له لماذا بدت واجمة بهذا الوادى بالأثيل من أعراض المدينة أو بالشبا ، وهو يجيب بأن مودتهما قديمة صافية نقية من الفحش ، وهو يصف الزمان الذى فرَّق بينهما بالشؤم ويعجب من سلامة قلبها وجسمها وسقم قلبه وجسمه ، وينسب إلى محبوبته عدم إنصافه وبأن ما يظهره من تجلد يُخفى آلامه وجروحه الباطنة ، وفى ثنايا ذلك نرى مواضع للحشو لا تخفى على المتأمل للتركيب الدقيق للأبيات ، فهو يردف السالم بالصحيح بلا مبرر ويضع اسم الإشارة « هذا » بلا موجب فى قوله :

(١) الأغانى : ١٢ / ١٨٧ ، طبعة تونس .

أفى الحق هذا أن قلبك سالمٌ صحيحٌ وقلبي فى هواك سقيمٌ ؟
وتبدو دورة الدلالة فى البيت التالى ضعيفة بسبب ضعف العلاقة بين عدم
إنصافها له من ناحية وحلمه عنها من ناحية أخرى :

لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى ولكننى يا عزُّ عنك حلِيمٌ
إن اختياره لـ « حلِيم » هنا اختيارٌ غير موفق ، فهو يتحلّى بالحلم فى مقابل
عدم إنصافها له ، وماذا كان يريد أن يفعل على سبيل المثال إزاء ذلك إذا لم
يتحلّى بالحلم ؟

ثم تأمل تركيب هذا البيت الأخير :

وانى لذو وجدٍ إذا عاد وصلها وانى على ربّى إذا لكريم
فما علاقة كرمه على الله تعالى بكونه ذا وجدٍ إذا عاد وصلها ؟
وهل يكون المرء ذا وجدٍ فى حالة الوصال أم عند الفراق ؟

* * *

خاتمة

لعل صورة الغزل العذرى قد اختلفت ملامحها الآن من حيث كونها ظاهرة تاريخية ، ومن حيث هي فن شعري له خصائصه المتميزة ، لقد استهدف هذا البحث أن يضع صورة واقعية منطقية لهذه الظاهرة التي أحاط بها إطار عريض مما يمكن أن أدعوه وهماً وخيالاً ، وأرجو أن يكون هذا البحث قد سلط عليها ضوءاً كافياً لرؤيتها على الحقيقة باعتبارها جزءاً من كلِّ هو الصورة العامة لهذا الزمان فى النصف الثانى من القرن الأول للهجرة . . وهناك روايات حرص الذين درسوا هذه الظاهرة على التغاضى عنها خشية أن يزول عن بعض هؤلاء الشعراء وشعرهم ذلك الإطار الفخم العريض من التبجيل والإعظام منها ما أوردناه نقلاً عن الأغاني فيما يتعلق بجميل بثينة بوجه خاص ، ولكن إيماني بأن البحث العلمى هو بحث عن الحقيقة أياً كان وجه هذه الحقيقة هو الذى جعلنى أورد هذه الروايات التى تتصل اتصالاً مباشراً بما أحاط بعلاقته ببثينة من ريبة عمل جميل نفسه على درئها شعراً ونثراً ، ونحن لا نؤكد أو ننفى شيئاً وإنما نحن نعرض الوقائع كما وردت فى هذه الروايات .

ولعل تقييمنا لشعراء الغزل العذرى ككل قد اختلف عن التقييم الشائع ؛ ذلك أننا رأينا أن انشغال رجل ما بكل طاقته وطول عمره بامرأة ما ، واقتصار كل عمله وفكره وفنه على ملاحقتها حتى بعد زواجها ليس من جلائل الأعمال وعظائمها ، وإنما هو أمر يستوجب الرثاء لا الإكبار والتمجيد ؛ لأن هذا يعنى أنه رجل غير مشغول بفكر عظيم أو عمل عظيم ، وإلا لشغلت المرأة المحبوبة بعضَ وقته وطاقته وحياته وليس كل هذه الأشياء طيلة الحياة .

ولعلنا قد وضعنا أيدينا على الدوافع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت من وراء هذه الظاهرة الفجائية قصيرة الأمد نسبياً من أجل رؤية أقرب

إلى الواقع وإن ضحينا بالإطار الفخم الجميل الذى أحاط بها فى الأذهان لعصور طويلة من أجل هدف سام هو الحقيقة .

أما من حيث الفن فإننا نرجو أن نكون قد لمسنا حقيقة الخصائص المميزة لهذا الشعر من وحدة فى الموضوع ، ومن تعدد فى ألوان الشعراء أنفسهم ، وليس معنى ما ذكرناه فى دراستنا للخصائص التاريخية لظاهرة الحب العذرى وما يقف وراءها من دوافع تقع خارج دائرة الفن ، أنهم لم يكونوا صادقين فى فنهم ، فقد كانوا صادقين فى هذا الشعر الذى لا يخلو من القيمة الفنية ، ولكنهم كانوا ضحية هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولعلمهم كانوا وقود هذه النار التى أشعلتها السياسة الأموية فى بوادى نجد والحجاز بمهارة وحذق فائقين ، ولعل أهم مظهر للصدق كما ذكرنا قد تجلّى فى وحدة الموضوع فى كل قصائد هذا الغزل ، وكان لكل شاعر طابعه المميز خلافاً لما أشار إليه عميد الأدب العربى من أنهم كانوا معاً لوناً واحداً ، ولعل هذا هو ما برهننا عليه حين درسنا كل شاعر من الشعراء الأربعة البارزين على حدة ، وهم : قيس ليلى ، وجميل بثينة ، ووضاح اليمن ، وكثير عزة ، وهم أصحاب الكم الأكبر ، والخصائص الأوضح .

ولعل أهم ما لمسناه فى الدراسة الفنية هو توحد قيس ليلى مع الطبيعة ، وهذا الفتور فى شعر جميل بثينة ، وهذا الضعف واللين عند وضاح اليمن .

وأخيراً هذه اللمحات الفنية البارعة وإن كانت قليلة عند كثير عزة ، وخاصة تصويره العميق المؤثر لليل .

وعسى أن نكون قد أسهمنا بهذه الأوراق فى كشف حقيقة هذه الظاهرة الغربية حقاً فى تاريخ الشعر العربى .

واللّهُ من وراء القصد .

* * *

المراجع

- ابن حزم : جمهرة أنساب العرب .
القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٢
- ابن سلام : طبقات الشعراء .
القاهرة ، مطبعة المدنى ، د . ت .
- ابن طولون الدمشقى : بسط سامع المسامر بأخبار مجنون بنى عامر ،
شرح وتحقيق عبد المتعال الصعيدى .
القاهرة ، مكتبة القاهرة ، د . ت .
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء .
القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، سنة ١٩٦٠
- ابن النحاس : شرح القصائد المشهورات الموسومة بالملقات ، بيروت ،
دار الكتب العلمية ، سنة ١٩٨٥
- ابن النديم : الفهرست .
- أبو بكر الوالبى : ديوان مجنون ليلى .
القاهرة ، مكتبة الآداب ، سنة ١٩٨٨
- أبو عبيدة : النقائض .
- أبو نواس : الديوان .
بيروت ، دار الكتاب العربى ، د . ت .
- الأصفهانى : الأغانى .
تونس ، الدار التونسية للنشر ، د . ت .

- الأندلسى ، أبو محمد بن على : جمهرة أنساب العرب .
بيروت ، دار الكتب العلمية ، سنة ١٩٨٣
- الأنطاكى ، داود بن عمر البصير : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق
العشاق .
القاهرة ، سنة ١٢٩١
- براون ادوارد جرانفيل : تاريخ الأدب فى إيران . ترجمة إبراهيم
الشواربى .
القاهرة ، مطبعة السعادة ، سنة ١٩٥٤
- البلاذرى : أنساب الأشراف .
القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٧٨
- بروكلمان : تاريخ الأدب العربى .
القاهرة ، دار المعارف .
- جميل بن معمر : ديوان ، جمع وتحقيق بشير يموت .
بيروت ، سنة ١٩٣٤
- حسين نصار : قيس ولبنى
القاهرة ، دار النصر للطباعة ، سنة ١٩٦٠
- دانتي أليجييرى : الكوميديا الإلهية ، والحجيم ، ترجمة حسن عثمان .
القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .
- رضا زادة شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ترجمة محمد موسى
هنداوى .
القاهرة ، دار الفكر العربى ، سنة ١٩٤٧
- الزركلى خير الدين : الاعلام .
بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة ١٩٩٠ - الطبعة التاسعة .

● سليم حسن : الأدب المصرى القديم .

القاهرة ، دار أخبار اليوم ، ١٩٩٢

● شكرى عياد : كتاب أرسطوطاليس فى الشعر .

القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣

● شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى (العصر الرسلامى) .

القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٨

● شكسبير ، وليام :

Shakespeare : The Complete Works of William Shakespeare ,
Romania

● الطبرى : تاريخ الرسل والملوك .

القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .

● طه حسين : حديث الأربعاء .

بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، د . ت .

● الغزالى : إحياء علوم الدين .

القاهرة ، دار الفكر العربى ، د . ت .

● غنيمى هلال ، محمد : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية .

القاهرة ، دار المعارف ، دار نهضة مصر ، د . ت .

● القرشى : جمهرة أشعار العرب .

قيس بن الملوح : ديوان مجنون ليلى ، شرح عبد المتعال الصعيدى .

القاهرة ، مكتبة القاهرة ، د . ت - الطبعة الثانية .

- المتنبي : ديوانه .
بيروت ، المكتبة الثقافية ، د . ت .
- المبرد : الكامل فى اللغة والأدب .
بيروت ، مكتبة المعارف ، د . ت .
- مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب .
بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨٨ ط ٢
- مصطفى كامل الشيبى : الحب العذرى .
بغداد ، دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، سنة ١٩٨٥
- النابغة الذبياني : ديوانه . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٧٠

* * *

الفهرس

الصفحة

٣ مقدمة
٧ أ - حقيقة الظاهرة
٩ - كثرة الكتابات فيها
١٠ - أوجه الغرابة
١٣ - قصص المحبين
٢٣ - رؤية القدماء والمحدثين للظاهرة
٢٣ أ - القدماء
٢٣ - التقليد البدوي والسلطان
٢٨ - النسبة لبني عذرة
٢٩ - التصوف
٣١ ب - المحدثون
٣١ - أثر الإسلام
٣٩ - العفة والسمو
٤٧ - الشك في بعض الأخبار
٥٥ ب - الفن :
٥٦ مقدمة
٥٧ - وحدة الموضوع

الصفحة

٦٠	- تعدد الألوان
٦٢	- العفة والسمو
٦٥	- اليأس والفقر
٦٨	- الشعراء
٦٨	- الطبيعة البكر ونسيج البيت عند قيس بن الملوّح
٧٦	- الفتور فى غزل جميل وسذاجة المعانى
٧٩	- اللين والضعف فى وضاح اليمن
٨٣	- كثير عزة والتوحد مع الطبيعة
٨٩	خاتمة
٩١	المراجع

* * *

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٣ / ٩٥١٥

I.S.B.N. 977 - 241 - 099 - 0

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>